أنا المصرى

جمال بدوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٥

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى عام ٢٠٠٠ ضمن مكتبة الأسرة برعاية السيدة الفاضلة **سوزان مبارك**. وتحت إشراف الأستاذ الدكتور **سمير سرحان** رئيس الهيئة العامة للكتاب، ولقى الكتاب قبولا من القراء حتى أن جميع نسخه المطبوعة نفذت فى فترة زمنية قصيرة، ثم فوجئت باختياره «أفضل عمل ثقافى» فى المعرض الدولى للكتاب، وشرفت بتسلم «الأوسكار» عن الكتاب من السيد الرئيس **حسنى مبارك**، ولما تولى الأستاذ الدكتور **ناصر الأنصارى** رئاسة الهيئة، اقترحت عليه إعاد طبع الكتاب تعميما للفائدة، ولقى الاقتراح قبولا منه، فله الشكر والتقدير.

وها هو الكتاب فى طبعته الثانية بين يدى القارئ، وكلى أمل أن تلقى ما لقيته الطبعة الأولى من قبول، فليس شىء يسعد الكاتب

أكثـر مـن ذيوع أفكاره بين الجـمـاهيـر العـريضـة المـتـعطشـة إلى المعرفة عن طريق هذه السلسلة الجليلة.

والله من وراء القصد.

جمال بدوى

يوليه ٢٠٠٥

الصبر المصرى

• مقدمة •

نشأت وفى تكوينى إحساس عميق بقيمة الحرية.. ولست أبالغ إذا قلت: إنها القضية الرئيسية التى تؤرق مضجعى، وتشغل اهتمامى قارئا وكاتبا. وتوجه سلوكى مع الآخرين، وتحدد موقفى من المجتمع.. ولذا ترانى أحوم دائما حولها، أبحث عن أثرها فى علاقة الفرد بالدولة، وعلاقة الدولة بالمحكومين، فالحرية - فى تصورى - حجر الزاوية أو قطب الرحى فى البناء الاجتماعى كله، بقدر توافرها ينمو المجتمع صحيا وعقليا، ويزدهر العمران وتتفتح الطاقات. وتثمر ملكات الإبداع عند الأفراد، وبقدر اختفائها أو العبث بها تنفجر الكوارث والرزايا التى تصيب المجتمع فى حياته العملية والخلقية والروحية.

أنا أعنى بالحرية، تلك الفطرة التى خلق الله الإنسان عليها.. كائنا نبيلا كريما مرفوع الرأس، سليم الوجدان، وأعنى بالعبودية تلك الوصمة التى تصيب الإنسان فتجعله مسخا مشوها خائرا ذليلا.. يحرص على

حياة - أى حياة - وإن كانت مهينة.. كئيبة.. حقيرة وقديما كنا نحفظ من أبيات الشعر العربى ما يغرس فى نفوسنا نزعة الإباء والشمم والترفع على حياة الذل والهوان.

وكان مفهوم الحرية عند آبائنا هو المفهوم المضاد للعبودية فى شتى صورها، ولا يعنى أبدا الفوضوية أو التحلل من القيم الأخلاقية والدعوة إلى الفجور والانحلال.. كانت الحرية عندهم تعنى الشرف الرفيع الذى يجعل من الإنسان سيد نفسه، ولم أكن أعرف سر إصرارهم على تحفيظنا هذا البيت:

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى

حتى يُراق على جوانبه الدمُ

إلا بعد أن نضجت، فعرفت أن الشرف الرفيع شأنه شأن العرض يستحق أن تهون من أجله المهج والأرواح.. وبعدها فهمت مغزى تساؤلات هند بنت عتبة زوج أبى سفيان بن حرب عندما جلستْ بعد فتح مكة تبايع النبى ﷺ على الالتزام بأخلاق الإسلام وترك الفاحشة فتوقفت برهة، ثم تساءلت فى كبرياء: أوَ تزنى الحرة؟!

فالشرف عندها قرين الحرية.. والرذيلة بنت الاستعباد.

وكان علماؤنا يحرضوننا على الإباء.. ورفض الضيم.. والتمرد على الطغيان.. ويقولون لنا إن عزة النفس تضاهى حياة الملوك.. وإن الإنسان الكريم لا يرضى لنفسه الهوان ويستشهدون بقول المتنبى:

ولا يقـــيمُ على ضـــيْم يراد بـه

إلا الأذلان عـــيـــرُ الحى والوتدُ

هذا على الخسف معقوصٌ برمّته

وذا يُشُـج فـــلا يـرثى له أحـــدُ

وعير الحى هو الحمار.. ذلك الكائن المستكين الذى روضه الإنسان وقلم أظفاره وانتزع منه أنياب التمرد، فبات والذل جزء من طبيعته.. يجبر على حمل الأثقال وهو مشدود بقطعة تافهة من الحبال.. فلا يغضب!! وكذلك الوتد الذى تتهاوى المطارق على رأسه فلا يشكو ولا يئن.. ومن ثم لا يستحق الرثاء، لأن الإنسان يأنف بطبعه من الذليل الخانع ولو كان صديقا .. ويحترم القوى الأبى الجسور، ولو كان خصما.

تاريخ أجدادى

بهذه النظرة الضارية فى أعماق الذات، حملت هموم قومى.. ووعيت تاريخ أجدادى وهم يتعرضون للظلم والبطش على أيدى جبابرة عتاة على مدى أربعين قرنا بدءا بفرعون وهامان.. وانتهاء بزبانية السجن الحربى.. ومرورا على تلك الطغمة الفاتكة من الجبارين الذين ملكوا مصر وضربوا على أهلها صنوف الاستعباد.

إنها سلسلة فولاذية متصلة من الجبروت والقهر صنعها أجناد أغراب يملكون السلاح.. فتملكوا الأرض والماء.. ثم تملكوا سلطان القانون وشعب أعزل من السلاح - وهيهات له أن يسترده - فقد حالوا بينه وبين

الاقتراب من الجيش حتى يظل أهل مصر بمنأى عن الحكم والسلطة، وكان هؤلاء الطغاة يعرفون جيدا أن الفلاح المصرى ما إن يطرح الفأس ويمسك البندقية حتى يستدير ليمزق بها أحشاء ظالميه.. ولقد فعلها أحمد عرابى.. فتكالبوا عليه وأخمدوا ثورته وانتزعوا منه البندقية قبل أن يفرغ كل محتوياتها فى صدورهم ثم سرحوا أجناده إلى الحقول ليحملوا الفؤوس مرة أخرى..

تلك هى عقدة المأساة فى ملحمة الصراع المحتدم بين المصريين وغاصبيهم منذ ألقى المصريون السلاح فى أواخر العصر الفرعونى وتركوا للغرباء مسئولية الدفاع عن البلاد، وتفرغوا هم للزراعة وصنع الحضارة وحماية القيم الروحية والشرائع الدينية سواء فى كنيسة الإسكندرية أو فى رحاب الأزهر.. وتشكلت على أرض مصر ثنائية شاذة:

* شعب يكد ويكدح وينتج فلا يكون نصيبه من متاع الدنيا سوى لقيمات يقمن صلبه..!

* وطبقة حاكمة أرستقراطية تفوز بأطايب الثمر وتعيش حياة البذخ والسفه والفجور من دم الشعب المسكين..!

تحت حكم البين

من كان يصدق أن يخضع أحفاد الفراعين - الذين هزوا أركان العالم القديم وارتفعت راياتهم على منابع النيل جنوبا حتى بلاد الحيثيين شمالا - لحفنة من المماليك المجلوبين من أسواق العبيد فى بلاد القوقاز،

فيصيرون فى مصر ملوكا..!! هل يعقل أن تقع مصر العريقة تحت حكم عبد خصى اسمه «كافور».. وجارية جميلة اسمها شجرة الدر. وأسير حرب مغولى اسمه «كتبغا»..! لقد حصل كل هذا وأهل البلاد صابرون.. يدعون لهم على المنابر بدوام العز والتأييد..

هذه الشراذم التى طوحت بها رياح الفقر من جوف آسيا المجدب، وجدوا فى أرض الكنانة اللقمة الطرية والشربة الهنيئة.. والترحيب الحار من أهل مصر الكرام البررة.. ويلتحق الواحد منهم فى سلك العسكرية المملوكية فلايلبث أن يصير صاحب إقطاع يحمل إليه خراجه وهو يتمطع فى أبهاء قصره الفخيم فى بركة الفيل أو على ضفاف الأزبكية، وحوله أسراب الجوارى والعبيد من كل جنس ولون.. يحدث هذا والمصريون يعيشون فى كهوف من البوص.. مغروسة سيقانهم فى الطين.. منحنية أصلابهم على الطنبور والشادوف والمحراث.. فإذا أوى الفلاح إلى داره طوى صدره على الألم.. وأخذ يردد شعارات وحكما وأمثالا تتغنى بفضائل الصبر.. فى انتظار الفرج.. ولعلك صادفت هذه الكلمات الرخيصة الهابطة التى ينقشها بعض الناس على عربات الكشرى ودكاكين الفول والطعمية: سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى..

وأصبر حتى يحكم الله فى أمرى

وأصبر حتى يعلم الصبر أننى صبرت على شىء أمرّ من الصبر.

فما الشىء الذى هو أمر من الصبر غير الذل والهوان..!!

هذا الصبـر المصرى العتـيد، من شأنه أن يثير غيظ الحليم.. لأنه صبر مقترن بالصمت والاستسلام والسكوت على ظلم الطغاة الفجرة.. لدرجة أن جبار الدولة العثمانية سليم الأول تعجب من أن تمكث مصر ذات التـاريخ العـريق لمدة قـرنين ونصف قـرن تحت حكم الممـاليك! وهاله أن تظل البقرة الحلوب فى حوزة هؤلاء الأجلاب، فقال لنفسه: أنا أولى بهـا منهم.. فأنا سليل سلاطين وملوك مـحـتـرمـين.. أمـا هؤلاء فصعاليك يباعون بالدراهم.. فجهز جهازه وجاءها بجيش جرار أوله عند باب زويلة وآخره عند قليوب.. حتى تملكها وأزاح عن كاهلها حكم المماليك، ولكن هذه الزحزحة لم تستمر طويلا..

فقد جاء من بعده ابنه السلطان سليمان (القانونى) وعاب على والده بطشـه بالممـاليك. وقـال: أمـثل هؤلاء الأطهـار البـررة يبـعـدون عن الحكم..؟! فعاد المماليك ليستأنفوا حياة الخلاعة والمجون.

وفى أواخر العصر العثمانى، وبعد فشل محاولة على بك الكبير الاستقلالية - كان نفوذ المماليك قد تركز فى أيدى الأميرين الشهيرين: مراد بك وإبراهيم بك، وقد عـاث كل منهمـا فى أرض مصر فسادا.. فبعثت الآستانة برسول من عندها ليكبح جماح الوحشين الشرسين.. فلما أهل الرسول - وهو حسن باشا القبطان - على مشارف مصر. شمّع كل منهما الفتلة - كعادتهما - وهربا إلى الصعيد.. وصعد القبطان إلى القلعة وهو يحسد الأميرين على النعيم الذى يتمرغان فيه على حساب الشعب المطحون ويتعجب من صبر المصريين على الظلم الذى يحيق

بهم من جانب مملوكين صعلوكين.. فلما صعد العلماء إليه لتحيته والسلام عليه قال لهم معنفا:

* كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران، وترضونهم حكاما عليكم يسومونكم العذاب والظلم..؟! لماذا لم تجتمعوا عليهم وتخرجوهم من دياركم..؟

فقال له الشيخ العروسى: يا مولانا.. رعية مصر قوم ضعاف..!

وقال إسماعيل افندى الخلوتى.. يا سلطان.. هؤلاء عصبة شديدة البأس ويد واحدة...!!

ولو كنت مقام حسن باشا القبطان لقلت لوفد العلماء: وما الذى يمنعكم من أن تكونوا مثلهم يدا واحدة...!! ولماذا لم تهيئوا الأمة - وأنتم قادتها وموضع ثقتها - لكى يشتد عودها فتتصدى للظلم وتقاوم الطغاة..؟ ولماذا لم تنفثوا فى بنى وطنكم روح الإباء والتضحية والفداء بدلا من أن تبثوا فيهم سموم الصبر والخنوع والرضا بالأمر الواقع..!! وكنت أقول لهم: كان أجدر بكم أن تنتصروا للأمة التى خرجتم منها وأفاءت عليكم خيراتها.. بدلا من أن يكون ولاؤكم للحكام الظلمة... وكان واجبا عليكم أن تؤدوا الأمانة التى تحملونها فى أعناقكم بدلا من أن تشغلوا أنفسكم باقتناء القصور وحيازة الاقطاعات وجباية الأموال وجلب العبيد ومنافسة الأمراء فى حياة الدعة والخمول والتمرغ فى أعطاف النعيم.. وكنت أقول وأقول ولكن من يسمع..؟؟

ومما يثير العجب أن ظاهرة الصبر المصرى العتيد لفتت أنظار نابليون بونابرت، وقد جاءها يحمل فى صدره حقدا مسبقا على الأمراء

المماليك، وعزما على الإطاحة بهم حتى يتحرر المصريون من عسفهم وجورهم، فطلب من العلماء أن يشكلوا من بينهم حكومة محلية تتولى إدارة شئون القاهرة على نمط كوميونات باريس - أو المجالس البلدية - التى ابتدعتها الثورة الفرنسية، فكانت المفاجأة المفجعة فى رفض العلماء تحمل هذه المسئولية بحجة «أن سوقة أهل مصر لا يخافون إلا من جنس الترك!!».

عجيب والله أمر هؤلاء الناس...! تأتيهم السلطة منقادة فيرفضونها بحجة أن بنى وطنهم لن يهابوهم، لأنهم لا يخافون إلا من الكرباج التركى..!!

أرأيت إلى هذا المفهوم المعوج لمعنى السلطة؟ فهى فى نظرهم مجرد كرباج يرهب الناس ويرعبهم!! ولا تظن أنهم رفضوا تحمل المسئولية بدافع الوطنية التى تأبى التعاون مع الحاكم الأجنبى... لأنهم أنفسهم قبلوا عضوية الديوان وكانت اختصاصاته مقصورة على إبداء المشورة فيما يعرض عليه من أمور.

لقد رضوا بالقليل.. ورفضوا الكثير.. لأنهم فقدوا الثقة فى أنفسهم وفى قدرتهم على إدارة شئون البلاد من طول ما ألفوا الاستعباد.. وسوف ترى عزوفهم عن تحمل المسئولية حتى بعد زوال الفرنسيس.. وسوف تلمس ذلك فى امتناعهم عن تنصيب واحد منهم - عمر مكرم - حاكما على مصر.. ولا تفسير لذلك سوى الخوف من تحمل المسئولية... أو قل - بلا حرج أو كسوف - هى الأنانية والأثرة والأحقاد الشخصية التى دفعتهم إلى تفضيل الحاكم المستورد على ابن البلد

المصنوع صناعة محلية بحتة.. وبعد كل ذلك يعيبون على المماليك أنهم كانوا يدا واحدة..!!

حلقة جديدة

وجاء محمد على ليصنع حلقة جديدة من حلقات الاستبداد، ويعيش المصريون فى ظله فصلا من كتاب الاستعباد الطويل، ويتجرعوا من يده كأس الصبر المر، ويهبط مصر رسول الحرية جمال الدين الأفغانى ويرى الحياة التعيسة التى يعيشها الفلاحون.. فيتألم.. ويتحسر.. ويصرخ: أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق.. وتقوم بأود العيال.. فلماذا لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك..؟

ويخرج من عباءة الأفغانى، المعطاءة الفضفاضة، نجوم وكواكب عشقوا الحرية، وكرهوا الظلم.. والمدهش أن بعضهم لم يكن مصريا.. ولكنه عرف مصر فهام بها حبا.. واحترم شعبها العريق الأصيل، وأنا أعنى هذا الشاب السورى المسيحى أديب اسحق الذى جند قلمه الجرئ لفضح الاستبداد، وجعل من صحيفته الشابة (مصر) سوط عذاب يلهب ظهور الجلادين ، فلما تكالبوا عليه وطردوه من مصر، لجأ إلى باريس لينضم إلى استاذه الأفغانى ورفيقه محمد عبده وينشأ من الثلاثى المبارك كتيبة فدائية تلاحق طغاة مصر بأعنف الكلمات.

وفى مدينة النور والحرية والجمال يتحول الشاب الوديع إلى أسد هصور لا يكل ولا يمل عن الجهاد. ولا يتطرق اليأس إلى نفسه وهو يدافع عن قضية الحرية فى مصر، فهو يعتبرها قضية حياته ويقول:

«لقد آليت أن أبكى الحق فى مصر حتى يعود مخضر العود.. فإن عاد فلا أسف على البقاء.. وإن لم يعد فعلى مصر العفاء...» ومن صدره الوجيع المكدود تتصاعد النفثات الحزينة ويخاطب المصريين بكلمات بالغة القسوة.. ولكنها قسوة الشفوق على من يحب، فيلومهم على سكوتهم وصبرهم على الواقع المرير:

«على أنكم لم تأتوا من منكر يوجب هذا القصاص الأليم، بل أستغفر الله، فقد أتيتم منكرا لا يغفر فى صبركم على المنكر، ومن أغضى عن المنكر على علم به، ومقدرة على إزالته فقد شارك أصحابه واستحق عقابه، وأهملتم ما حق عليكم، فلا غرو أن تحرموا ما حق لكم..».

لقد أدرك أديب اسحق سر شقاء الشرق.. ووضع يده على سبب البلاء وهو جهل أبنائه .. وطغيان زعمائه لقد توصل إلى هذه الحقيقة عن طريق المعرفة بالتاريخ.. وعن طريق المعايشة.. ثم وضع كل ذلك فى مجال المقارنة مع الشعوب الأوروبية التى انتفضت على قيودها.. وحطمت أغلالها.. وأطاحت بالعروش التى وضعت نفسها فى موضع الآلهة فكتب مقالا تحت عنوان (أوروبا والشرق)

«قضى على الشرق جهل عامته، واستبداد خاصته، وخيانة زعمائه وتعصب رؤسائه، أن يهبط بعد الارتفاع، ويذل بعد الامتناع، ويكون هدفا لسهام المطامع والمطالب، تعبث به أيدى الأجانب من كل جانب، فمنهم من يغير عليه بحجة الغيرة على الإنسانية، ومنهم من يتطرق إليه بدعوى إقامة المدنية ولم نر منهم من صدق فى دعواه. بل كلهم تابع فى ذلك قصده وهواه».

«فإذا لم ينتبه الشرقيون من غفلتهم، ولم ينبذوا عنهم التقاليد الموجبة لتفريق كلمتهم، ولم يغذوا ألباب «صغارهم بغذاء الحرية، ولم يرسموا على ألواح صدورهم رسم الوطنية، ولم يعرضوا عن وعيد الخائنين، ولم يغضبوا لوطنهم أن يغصب، ولمالهم أن ينهب، ولحقهم أن يسلب ولمجدهم أن يذهب، فما يلبثون أن يصيروا عبيد أعدائهم، وأسراء نزلائهم، لا نرى فيهم بعد حين غير البواب يرفع الستارة ويسدل الحجاب، والفراش يضع الوسادة ويمهد الفراش، والكناس يزيل الغبار والأرجاس، والسائل يطلب الصدقة بالدمع السائل... أما الأمراء فيحقرون. وأما الأغنياء فيفتقرون وأما النبهاء فيهجرون».

ثم يمضى الكاتب الثائر يحرك فى نفوس المصريين بذور التمرد على الظلم، ويحرك ضمائرهم حتى تنهض من غفوتها وتصب جام غضبها على رؤوس الغاصبين.. ويتمنى قرب ذلك اليوم الذى يثور فيه المصريون على واقعهم المرير ويستخلصون حقوقهم من أيدى الجبارين.. ويخاطبهم فى لهجة تحريضية واضحة لكى يتطلعوا إلى حياة العزة مهما كانت التضحيات فيقول:

«أفليس الموت خيرا من هذا الفوت؟ أيليق بذى الدم الشرقى أن يصبر على هذا العسف؟ أم يحسن بذى النفس الذكية أن يرضى بهذا الخسف؟

وعاد الغريب

كانت الحرية هى النغمة الرئيسية فى ألحان هذا العصفور المغرد.. فالحرية هى الهدف النبيل الذى ترخص من أجله الأرواح، لقد تولدت

فطرة التحرر فى نفسه منذ صباه .. ثم ترسخت جذورها بعد قدومه إلى مصر، واتصاله بالسيد جمال الدين الأفغانى حتى أصبح من أقرب مريديه وأشدهم تأثرا بأخلاقه وبأفكاره. وأصبح عنصرا ثابتا فى ندوة الأفغانى بقهوة (متاتيا) حتى أن أستاذنا الدكتور عبداللطيف حمزة يقول إن الأفغانى هو الذى أوعز إلى أديب إسحق أن ينشئ جريدة (مصر)فقام بإنشائها عام ١٨٧٧ ولم يكن فى جيبه يومئذ أكثر من عشرين فرنكا... وأقبل الناس على الجريدة لما كانت تضمه من مقالات حماسية فى لهجتها.. لاذعة فى نقدها. كانت فى معظمها من تأثير الأفغانى ومن صياغة أديب إسحق.. وبقيت الصلة بين الشيخ والمريد حتى نفى الأفغانى من مصر عام ١٨٧٩، وتبعه أديب إسحق فى العام التالى ثم لحق بهما محمد عبده بعد فشل الثورة العرابية. وفى باريس أعاد أديب إصدار صحيفته (مصر) كما أصدر الأفغانى ومحمد عبده (العروة الوثقى)..

وقضى على هؤلاء الأحرار أن يطردوا من ديارهم ولكنهم لم يفقدوا حماسهم وظلوا يواصلون رسالتهم عن طريق الصحف التى أعادوا إصدارها فى باريس وقد أفادوا من مناخ الحرية الذى افتقدوه فى ديارهم .

وعاش أديب إسحق فى باريس حياة الطائر الطليق بكل ما يعنيه هذا الوصف من انطلاق وتحرر.. وكان لا يكف عن الشراب والسهر حتى تمكنت العلة من صدره.. ونهش السل رئتيه.. فرقد طريح الفراش فى غرفة باردة بإحدى حوارى حى سان جرمان فى مدينة النور والعدل

والحرية... وأفاق الشاب مرة من إغمائه، فلاح له شبح أستاذه الجليل مثل فارس من فرسان القرون الوسطى أو كخيال فذ لعملاق خطرت قدماه على الدرب الذى سلكه الإنسان فى طريقه الشاق الطويل نحو التقدم والتحرر وفى سبيل العدل والحرية. ومرة أخرى تمتم الشاب العليل بكلماته المنزوعة من شغاف القلب الممزق: لقد آن للغريب أن يؤوب.

وعاد الغريب إلى كرمته.. وتحت شجرة صغيرة من أشجار الأرز تعلو مصيف (الحدث) بجبل لبنان، ثوى الطائر الشريد إلى عشه، وسكنت روحه المعذبة بعد رحلة مترعة بالشقاء والنفى والتشريد... وخمد الصوت الذى انطلق مجلجلا فى سماء الغرب، يحلم بعزة الشرق وحريته ونهضته حياة لم تستغرق من عمر الزمن سوى تسعة وعشرين ربيعا.. ولكنها كانت مفعمة بالنشاط والحيوية... والصدق والعذاب فى سبيل حرية الإنسان وكرامته.

أذكروا دائما اسم أديب إسحق فى سجل الأحرار الذين أفنوا حياتهم فى مقاومة الطغيان، عاشوا عيشة الضنك والعذاب من أجل أن يعيش الإنسان حرا.. أبيا... كريما كما خلقه الله..

وبعد...

فلا تلمنى إذا حملت هموم قومى.. وطوفت بهم عبر هذه السياحة المرهقة لكى يعرفوا تاريخهم .. ويعرفوا كم عانى آباؤهم وأجدادهم من جور الطغاة.. وعسف المتجبرين..!!



بنت الزعيم

فى العقد الأول من القرن العشرين، دخلت الحركة الوطنية فى مجابهة سافرة مع سلطات الاحتلال البريطانى، وجاء حادث دنشواى سنة ١٩٠٦ ليصب الزيت على النار ويشعل الشعور الوطنى ويزيده تشبثا بالاستقلال والحرية، وانطلقت الأصوات تندد بالاحتلال وما جره على البلاد من بلاء، وكانت راية الحركة الوطنية قد آلت إلىٰ الزعيم محمد فريد بعد رحيل مصطفى كامل، وسار على نهجه فى ارتياد المحافل والمؤتمرات سواء فى مصر أو فى العواصم الأوروبية لاستنهاض همم الدول المناوئة لبريطانيا. وكان الشيخ على الغاياتى أحد الشعراء الذين يلاحقون الاحتلال بالقصائد الملتهبة، ثم خطر له أن يجمع قصائده فى ديوان جعل عنوانه (وطنيتى) ووقع اختياره على الزعيم محمد فريد والشيخ عبدالعزيز جاويش ليكتب كل منهما كلمة يضعها فى صدر الديوان، ولما كان محمد فريد قد اعتزم القيام بجولة أوروبية، ولم يكن الديوان قد صدر بعد - فقد كتب فريد مقالا عن (تأثير الشعر فى تربية الأمم) ودفع به إلى الغاياتى ليضمه إلى الكتاب

حال صدوره، وكذلك فعل الشيخ جاويش - وفى مايو ١٩١٠ أبحر محمد فريد إلى أوربا، وبعد شهرين صدر الديوان، ووجدت فيه السلطات فرصة ذهبية للتنكيل بمحمد فريد وصاحبيه.

كانت حكومة محمد سعيد باشا تنتهج سياسة التشدد مع رموز الحركة الوطنية، وترى فى ترهيبهم والبطش بهم وسيلة لتخويف الجماهير، حتى تكف عن التنديد بالاحتلال والحكومة التى تعمل تحت رايته. ولم تجد النيابة العامة فى محتويات الكتاب ما يستوجب الإدانة، فجميع القصائد التى احتواها سبق نشرها فى الصحف، ولكن الحكومة أصرت على تأديب الفرسان الثلاثة ليكونوا عبرة لغيرهم وعهدت إلى رئيس نيابة الاستئناف توفيق نسيم بك (باشا ورئيس الوزراء فيما بعد) بمصادرة الكتاب والتحقيق مع مؤلفه، ثم تبين أنه غادر البلاد إلى سويسرا عندما شعر بما يدبر له، ولم يكن أمامها إلا محاكمة الشيخ عبدالعزيز جاويش وحضر للدفاع عنه محمد على علوبة (باشا) وأحمد لطفى بك، ثم أصدرت حكمها على الشيخ الغاياتى - غيابيا - بالحبس ستة أشهر مع الشغل، وعلى الشيخ جاويش بالحبس ثلاثة شهور مع النفاذ، أما محمد فريد فقد احتفظت الحكومة لنفسها بحق محاكمته بعد عودته من الخارج.

إشاعات ضد فريد

وكان من شأن الحكم على الشيخ جاويش أن يثير السخط فى نفوس الناس، وأدركوا أن سلطات الاحتلال لن تكف عن قطع ألسنة الأحرار. وشعروا بما تبيته لمحمد فريد بعد عودته. ولكن نفرا من خصوم فريد

أخذوا يرجون الاشاعات بأنه لن يعود إلى مصر حتى لا يتعرض للسجن، وأنه سيقنع بالحياة فى أوروبا ليضمن لنفسه عيشة هنية خالية من الكفاح والتضحية، ووصلت هذه الشائعات إلى عقر دار محمد فريد حيث زوجته الصابرة، وحولها بناتها الأربع وابنها الوحيد (عبدالخالق) واستقبلت الأسرة المكلومة هذه الأقاويل بالألم، ورغم أن محمد فريد - وهو أوربا - نفى أنه يعتزم البقاء فى أوربا - ولكن أبواق الاحتلال فى مصر كانت تعمل على ترويج هذه الشائعة على أوسع نطاق وتهدف من ذلك إلى تحطيم الروح المعنوية عند أتباعه وأنصاره من شباب الحركة الوطنية، ومع ذلك لم تسكت أسرة محمد فريد على هذه الحملة الباطلة، ونهضت كبرى بناته «فريدة» وكتبت إلى والدها رسالة تحثه فيها على العودة إلى مصر ولو كان مصيره السجن. وهى رسالة تكشف عن نزعة مصرية شجاعة تأصلت فى نفس هذه الأسرة التى تشربت روح التضحية والفداء من عائلها واختتمت الرسالة بهذه السطور الرائعة:

«ولنفرض أنهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا به على الشيخ عبدالعزيز جاويش، فذلك أشرف من أن يقال بأنكم هربتم، وما تحملتم من الهوان فى سبيل وطنكم.. وأختم جوابى بالتوسل إليكم باسم الوطنية والحرية التى تضحون بكل عزيز فى سبيل نصرتها، أن تعودوا، وتتحملوا آلام السجن».

ومن المؤكد أن هذه الكلمات النابعة من قلب ينبض بالشجاعة والوطنية، كان لها أثرها فى نفس محمد فريد ومن المؤكد أنه شعر بالفخر حين وجد البذور التى زرعها فى أولاده قد أثمرت فشد الرحال،

وعاد إلى مصر مرفوع الرأس بعد جهاده النبيل من أجل القضية الوطنية فى عواصم القارة الأوروبية، وخرجت الجماهير تستقبله بأعظم مظاهر الحب والتقدير. ورأى الاحتلال والخديو والحكومة أن يخمد هذا المد الشعبى بضربة موجعة ترهب محمد فريد وتلقى الرعب فى نفوس أنصاره، وقد عاد فريد إلى مصر يوم ٢٨ ديسمبر ١٩١٠ ولم تمض سوى بضعة أيام حتى استدعته النيابة للتحقيق. وكان المحقق هو نفسه محمد توفيق نسيم باشا، وانتهى التحقيق بإقامة الدعوى عليه بتهمة أنه (امتدح) كتاب وطنيتى. وأن هذا الكتاب يحتوى على أمور يعاقب عليها القانون. ونظرت القضية يوم ٢٣ يناير ١٩١١ أمام محكمة جنايات مصر برئاسة القاضى الانجليزى «دلبروجلى» وغصت قاعة المحكمة بأبناء الشعب تحت رقابة أمنية صارمة وامتدت أعناق الحضور إلى محمد فريد وهو يخطو إلى قاعة المحكمة وحيدا بعد أن رفض أن يترافع عنه أحد. واتخذ مقعده فى مواجهة المنصة التى اعتلاها «دلبروجلى» وعن شماله المستشار المصرى أحمد ذو الفقار بك، وعن يمينه المستشار أمين بك على، واستوى توفيق نسيم على مقعد النيابة. وبدأت وقائع المحاكمة بسؤال وجهه «دلبروجلى» إلى فريد عن التهمة المنسوبة إليه وهى «تقريظ» ديوان «وطنيتى». فكان رد فريد بهدوء:

«فى الوقت المنسوب إلىّ فيه تقريظ الكتاب كنت غائبا عن مصر، لأنه ظهر فى أواخر يونيه، وأنا سافرت إلى أوربا فى ٥ مايو.. أما المقالة فكتبتها قبل صدور الكتاب، ولا علم لى بالمسائل التى فيه، لأن كثيرا منها حدث، ونظم شعره فى غيابى.. ولما كتبت المقالة كتبتها باعتقاد أنها مما لا يعاقب عليه القانون».

فتحداه رئيس المحكمة قائلا: لا يمكن لواحد أن يكتب مالا يعتقده، فكتابتك تدل على الاستحسان لما فى الكتاب.

فأجابه محمد فريد: «أنا لم أحسن الكتاب، لأنى كتبت المقالة من غير أن أتعرض لما فى الكتاب، وهو مما يصح أن ينشر فى جريدة أو مجلة أو كتاب، وأنا قصدت بكتابتى الشعر من حيث هو»

وقام توفيق نسيم فألقى خطبة استغرقت ما يزيد على نصف ساعة، هاجم فيها محمد فريد هجوما عنيفا وأظهر فيها الشماته، ولكن فريد لم يكلف نفسه مشقة الرد عليه، وأبى أن يدافع عنه أحد المحامين، لثقته بأن الحق معه ولا يحتاج إلى إثبات أو إنكار ورفعت الجلسة لمداولة استغرقت بضع دقائق عادت بعدها لتصدر حكمها على محمد فريد بالحبس ستة شهور مع النفاذ.

وتلقى فريد الحكم وهو فى غاية الثبات، بينما ساد الذهول وجوه الحاضرين ومنهم من كتم غيظه بين جنبيه، ومنهم من لم يستطع فانخرط فى البكاء والنشيج، وسيق الزعيم إلى سجن الاستئناف لتنفيذ العقوبة.

محاكمة ظالمة

● هل كانت السلطة الحاكمة على حق عندما دبرت هذه المحاكمة الظالمة؟

يجيب المؤرخ عبد الرجمن الرافعى فيقول: مما يؤسف له أن يشترك الخديو والوزارة مع الاحتلال البريطانى فى ارتكاب هذا الظلم، وكان

الاشرف لتاريخ مصر أن ينفرد به الاحتلال بأن يصدر هذا الحكم عن محكمة عسكرية بريطانية أما أن تصدر المحاكمة عن النيابة العمومية، ومحكمة الجنايات المصرية، فهذا الذى يلقى تبعة هائلة على الهيئات المصرية، والأشخاص المصريين الذين اشتركوا فى هذه المأساة، إذ كيف يقابلون جهاد محمد فريد فى سبيل مصر وتحمله المشاق والتضحيات فى هذا الجهاد بهذا الظلم الصارخ؟ وهو لم يكن فى جهاده يحارب الخديو ولا الوزارة بالذات، بل كان يحارب الاحتلال، فكيف استساغ الفريقان - الخديو والوزارة - أن يكونا أداة الظلم والاضطهاد لحساب الاحتلال؟ ولم يكن ثمة شك فى اشتراك الخديو والوزارة فى هذه المأساة - لأن إقامة الدعوى العمومية على زعيم الحركة الوطنية، لا يمكن أن تنفرد بها النيابة العمومية، وأن يكون الموعز بها هو الاحتلال وحده، بل إن مثل هذه القضية السياسية الهامة لا تقام إلا بموافقة الحكومة وبتوجيه منها، ولقد يجمل بالخديو أن يذكر للحركة الوطنية فضلها عليه فى إقصاء اللورد «كرومر» خصمه العنيد عن منصبه، كما كان يجمل بسعد زغلول وقد كان يتولى وزارة الحقانية (العدل) أن لا يأمر بهذه المحاكمة، ولا يقر إقامة مثل هذه الدعوى، وهو المدين بمركزه فى الوزارة للحركة الوطنية.

فى الزنزانة رقم ٤٤

وفى طريقه إلى سجن الاستئناف طلب محمد فريد بعض الكتب لتكون مؤنسا له فى وحدته. وخصصت له الزنزانة رقم ٤٤ وكان لهذا الحكم القاسى وقع سيئ فى الدوائر الشعبية الوطنية، وشعرت الوزارة وأنصارها أنهم ارتكبوا أمرا شططا فى حق محمد فريد، وأنهم استهدفوا

لسخط الرأى العام . فأعلنوا أنهم سيبذلون قصارى جهدهم لإصدار عفو عنه، وأوفدوا إليه فى سجنه المستر «كولس» باشا مدير مصلحة السجون، ودخل عليه فى زنزانته ويرفقته عبد الرحمن أفندى سرى مأمور السجن، وسأله عما إذا كان له أى مطلب،و فأجاب بالنفى. ثم أمر «كولس» باشا مأمور السجن بالابتعاد حتى يختلى بالسجين. ودار بينهما الحوار على النحو التالى:

قال كولس باشا وهو يرسم على وجهه ابتسامة صفراء: إننى أسعى للعفو عنك.. ثم توقف برهة وأردف: إذ وعدت بتغيير خطتك.

فأجابه محمد فريد فى ثقة وهدوء: هذا أمر مستحيل.

وأدرك الضابط الانجليزى أنه أمام خصم عنيد فقال له: أنا لا أطلب منك تغيير مبادئك بل أرجو أن تخفف لهجتك.

فرد عليه باقتضاب: «لا».

وألقى «كولس» بالسهم الأخير: معنى ذلك أنك تود أن تظل سجينا طوال ستة أشهر؟؟

قال فريد: نعم.. وأزيد عليها يومان إن أردتم.

وغادر «كولس» سجن الاستئناف ليبلغ من أرسلوه أنه لا سبيل إلى مساومته.

وبعد بضعة أيام من هذه الزيارة جاء إليه فى السجن الدكتور عثمان بك غالب، موفدا من قبل الخديو عباس حلمى الثانى ليعرض عليه من

جديد مسألة العفو، وأن الخديو يرغب فى إنجاز هذا العمل قبل سفره إلى أوربا، ويرجوه أن يقدم طلبا بذلك، فلامه محمد فريد على مسعاه، وقال له : أنا لا أطلب العفو، ولا أسمح لأحد من عائلتى بطلبه عنى، وإذا صدر العفو فلن أقبله.

وقامت فى الصحف حملة تطالب بالافراج عن الزعيم محمد فريد، وكتب أحمد لطفى السيد باشا فى «الجريدة» يدعو للعفو عنه، ولكنه قال لمحدثيه: أرجو أن تبلغوا لطفى بك أن يتحاشى طرق هذا الموضوع، فإن هذا مالا أقبله، ولا أرغب فيه.

وقضى محمد فريد مدة حبسه كاملة، صابرا ثابتا، وشغل نفسه فى قراءة القرآن الكريم، وتعلم اللغة الألمانية. حتى إذا أوشك على الخروج كتب فى أوراقه:

«لم أشعر بضيق إلا عند اقتراب خروجى من السجن.. لعلمى أنى خارج إلى سجن آخر، هو سجن الأمة المصرية الذى تحده سلطة الفرد، ويحرسه الاحتلال، وكنت كلما أحسست بشيطان الضجر يسعى لأن يجد سبيلا إلى نفسى، ذكرت ما قاساه خدام الوطن فى السجون من صنوف العذاب، كالضرب بالسياط والموت جوعا، فأقول لنفسى إن هذا الحبس لا شىء فى جانب حبى لمصر.. أمى العزيزة».

يوم الإفراج

ولما حان يوم الافراج عنه، احتشدت جموع من الشباب فى ميدان باب الخلق وعيونهم على باب سجن الاستئناف، ولكن النهار ولى

ودخل الليل دون أن يفرج عنه، فظلوا ساهرين حتى بزغ ضوء الفجر، وعندئذ خرجت عربة سوداء مغلقة تجرها الخيول وتنطلق بأقصى سرعتها وبعد لحظات خرجت عربة مماثلة، وكان الغرض تضليل الجماهير المحتشدة، وكان فريد فى العربة الثانية وقد أطل من بين قضبانها وابتسم للجماهير شاكرا لهم ما تحملوه من مشقة الانتظار واتخذت العربة طريقها إلى شبرا وتوقفت أمام بيت كانت فيه سيدة صابرة وحولها أطفالها الذين هبوا من نومهم لاستقبال الأب الذى علمهم معنى التضحية والصمود فى سبيل مصر.

معركة أبنود

من أروع صفحات التاريخ المصرى الحديث، تلك المعارك الباسلة التى دارت على امتداد الأرض المصرية، من الاسكندرية حتى أسوان، بين أبناء الشعب، وقوات الحملة الفرنسية ، ففى تلك المعارك أظهر المصريون من ضروب الشجاعة ما أثار دهشة المؤرخين الأجانب، رغم أنهم كانوا يفتقدون قيادة تنظم صفوفهم ولم تكن هناك أجهزة إعلام تثير حماستهم، وإنما هو الإحساس العميق بالكرامة الوطنية، وأن دولة أوروبية بعثت بجيش لاحتلال بلادهم، فهبوا من تلقاء أنفسهم يقاومون الغاصبين ويجعلون من إقامتهم فى مصر جحيما لا يطاق، دون أن يعملوا حسابا لفارق العتاد الحربى، كان جيش بونابرت يحتوى على أحدث المدافع وأقواها فضلا عن اسلوبهم فى التعبئة والاعداد، وكما قوبل الفرنسيون بمقاومة عنيفة فى مدن وقرى الدلتا.. كان الصعيد مسرحا لمواجهات دامية على امتداد النيل من بنى سويف والفيوم إلى أسوان والنوبة.

وكان مراد بك، بعد هزيمته المنكرة فى إمبابة، قد فر إلى الصعيد وبدأ فى تنظيم جيش من المماليك والعربان والأهالى، وانضم إليه فرسان من عرب الحجاز بعث بهم شريف مكة لنجدة إخوانهم المصريين، وتشكل من كل هؤلاء جيش فرض نفوذه على الصعيد، وقطع خطوط المواصلات النيلية والبرية عن العاصمة، ومنع وصول الغلال وأموال الضرائب إلى الادارة الفرنسية المتحكمة فى شئون البلاد، وفى وقت تحرج فيه مركز الحملة بعد غرق الأسطول الفرنسى فى المعركة أبى قير، وحاول بونابرت أن يساوم مراد بك على الصلح على أن يتقاسم معه الحكم فى الصعيد ولكن مراد رفض الصلح إحساسا بقوته وضعف الفرنسيين، عندئذ أمر نابليون بتجهيز حملة لفتح الصعيد قوامها ثلاثة آلاف من المشاه، وألف من الخيالة، ومائة مدفع، وأسطول نهرى صغير، وسرب من الجمال لحمل مستلزمات الجنود، ووضع على رأس الحملة ألمع قواده: الجنرال «ديزيه» وبصحبته عدد من الأدلاء والمترجمين وكذلك المعلم «يعقوب القبطى ليدبر له الأمور.. ويعمل له المكر والخداع، ويطلعهم على الخبايا ويصنع له الحيل» على حد تعبير الجبرتى.. إذ كان يعقوب على دراية بشئون الصعيد بحكم خبرته المالية والادارية القديمة.

حرب عصابات

ودارت بين قوات ديزيه وقوات مراد بك معارك فى المدن والقرى والنجوع شارك فيها الأهالى بكل ما يملكون من أسلحة متواضعة، وكانت خطة مراد أشبه بحرب العصابات.. ينقض على المعسكرات

الفرنسية.. لا ستنزافها وإرهاقها دون الدخول معها فى مواجهة مباشرة تحاشيا لنيران المدفعية المكثفة، وعلى هذا النحو دارت المعارك، وكان الفرنسيون يلجأون إلى الانتقام من الاهالى، فيدمرون القرى ويشعلون فيها النار ولم تكن هذه الخسائر الفادحة تنال من الروح المعنوية لأبناء الصعيد، بل تزيدهم قوة وعنادا.. كانت المدفعية الفرنسية تفتك بالمصريين، ولكنهم - بشهادة مؤرخى الحملة - لم يستسلموا .. ولم يلقوا السلاح.. ولم يكترثوا بضعف إمكانياتهم.. وإنما يواصلون الجهاد ضد الغاضبين.. وفى مثل هذه المواجهات لا تحسب النتائج بحساب المكاسب والخسائر.. وإنما بشجاعة الروح.. وصلابة العزيمة.. والتضحية بالنفس والنفيس من أجل الحرية والكرامة والاستقلال.. وتجلت هذه الروح العالية فى كل المعارك التى دارت فى الفيوم وبنى سويف والمنيا وأسيوط وجرجا وسوهاج وطهطا وأسوان حتى معابد فيلة وميناء القصير على البحر الأحمر.. وكانت معركة «أبنود» نموذجا لهذه البطولات العظيمة. وقد دارت رحاها على سطح النيل ثم امتدت إلى شوارع القرية وحواريها. وان اختلف المؤرخون فى تحديد موقعها وقد رأى الدكتور نبيل السيد الطوخى فى كتابه (صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية) وهو رسالته للماجستير أن يأخذ بما ذكرته المصادر الفرنسية بأن هذه المعركة النيلية قد حدثت فى النيل عند مستوى قرية «أبنود»، فى حين أن المؤرخين المحدثين ذكروا أن هذه الموقعة قد حدثت عند قرية «نجع البارود» بالقرب من قوص.

أما وقائع المعركة فقد بدأت فى مطلع شهر مارس ١٧٩٩ عندما تحرك الجنرال ديزيه من قوص فى طريقه إلى أسيوط تاركا خلفه أسطوله الذى كان يسير ببطء فى النيل ليلحق بالجيش فى أسيوط، وكان هذا الأسطول تحت قيادة القومندان «موراندى» ويتألف من إثنتى عشرة سفينة محملة بالمدافع والذخائر والمؤن الخاصة بالجيش، وتتقدمها السفينة الحربية «إيطاليا» التى كانت تحمل ذخيرة وبعض الرجال المسلحين وبعض الجرحى.

وبينما كان الاسطول الفرنسى يسير فى النهر، اعترضته رياح شمالية شديدة اضطرته إلى التوقف عند مرسى «أبنود» وفى ذلك الوقت وصلت نجدات من بلاد الحجاز قوامها ألف وخمسمائة عربى، وزادت قوتهم بانضمام عدة آلاف من الفلاحين، وقرر الجميع التواجد فى «أبنود» حيث تقف السفن الفرنسية، وهاجم الأهالى ومعهم عرب الحجاز السفن الفرنسية وأطلقوا عليها الرصاص فردت السفينة «إيطاليا» باطلاق مدافعها عليهم فقتلت العديد من العرب والأهالى، ولكنهم لم يضطربوا، وهجموا على السفن والقوارب الصغيرة، واستولوا عليها وأفرغوا شحنتها من المؤن والذخائر وقطع السلالم ثم ركبوا القوارب وقصدوا إلى السفينة الحربية «إيطاليا» للاستيلاء عليها، وحينئذ ضاعف قائدها القومندان «موراندى» من قذائفة على الثوار، ولكنه لم يصمد طويلا، كما أصيب عدد كبير من رجاله بجروح، ولما رأى عددا كبيرا من الأهالى على الشاطئ الأيسر يتحفزون للهجوم عليه قرر الهرب ولكن لسوء حظه أن

عدد بحارته كان قليلا، والرياح كانت عاتية، فمالت السفينة وانتهز الأهالى والعرب الفرصة وهجموا عليها من كل جانب وصعدوا على ظهرها، ورفض «موراندى» الاستسلام، ولم يكن لديه أى أمل فى النجدة فأشعل النار فى مستودع البارود، وألقى هو ورجاله بأنفسهم فى اليم فى اللحظة التى انفجر فيها مستودع البارود والسفينة، وتفجرت شظايا القنابل على الشاطئ فقتلت عددا كبيرا من الأهالى، ولكن الباقين منهم قاتلوا «موراندى» ورجاله فلقوا مصرعهم جميعا. أما الفرنسيين الأحياء الذين نجوا من حريق السفينة والذين كانوا على ظهر السفن الأخرى فقد اقتادها الأهالى وعرب الحجاز إلى البر، وأمر المنتصرون فرقة الموسيقى الفرنسية بأن تعزف المارشات الفرنسية، وعلى تلك الأنغام قاموا بقتل جميع الفرنسيين بمن فيهم رجال الفرقة الموسيقية.

وكانت خسائر الفرنسيين فى هذه المعركة خمسمائة قتيل وهى أكبر خسارة تعرض لها الجيش الفرنسى فى حملته على الصعيد، وغنم المصريون وعرب الحجاز فى هذه المعركة الكثير مما كانت تحمله السفن الفرنسية من عتاد وذخائر ومدافع استغلوها فيما بعد فى معاركهم ضد الفرنسيين، كما استولوا على محتوياتها من الأموال وقدرها ثمانين ألف ريال، ولاشك أن هذا الانتصار رفع من آمال المصريين ومعهم عرب الحجاز فى حربهم ضد الفرنسيين إلى حد أن أعلن الشريف حسن: «إن هزيمة الفرنسيين أصبحت مؤكدة، وإنه سيسحق حفنة الكفرة الموجودة بالقرب منه».. ولكن.. هل سيسكت الفرنسيون عما لحق بهم من خسائر جسيمة فى معركة أبنود؟ أم أنهم سوف ينتقمون من الاهالى وحلفائهم عرب الحجاز لما لحق بهم من خسائر؟

إلى أبنود مرة أخرى

لما علم الجنرال بليار - الذى تولى القيادة بعد ديزيه - بما حدث للفرنسيين فى موقعة أبنود النيلية، اتجه على رأس قواته إلى قرية أبنود للانتقام من أهلها ، ولا سترداد الاسلحة والمدافع التى استولوا عليها حتى يجردوا الأهالى من أى سلاح حديث. فلما وصل إلى (قفط) فى الثامن من مارس ١٧٩٩، وجد قوات من الأهالى وعرب الحجاز والمماليك فى انتظاره، ودارت بين الفريقين معركة انتهت بهزيمة الأهالى وحلفائهم وانسحابهم إلى أبنود حيث تحصنوا فيها، ونصبوا بها المدافع الفرنسية التى غنموها ، وانضم إليهم فريق من المماليك اتخذوا مواقعهم على مشارف الصحراء فى انتظار لحظة الالتحام.

وصل الجنرال بليار على رأس فرقته إلى أبنود، ورأى استعدادات الأهالى وحلفائهم، فأعطى لجنوده أشارة البدء بالهجوم، وفى هذه اللحظة أطلق المصريون نيران مدافعهم على الفرنسيين ففتكت بهم فتكا ذريعا، وشعر الفرنسيون لاول مرة بشدة نيران مدفعيتهم وهى فى أيدى خصومهم، وكانت هذه أول مرة واجه فيها الفرنسيون مدفعية حديثة فى صفوف المصريين، وهنا أدرك «بليار» أن موقفه سيظل محفوف بالمخاطر مادامت هذه المدافع فى أيدى المصريين، ولابد من استرداد المدافع وتجريد المصريين منها، وانطلقت فرقة من حاملى البنادق فاستولوا على المدافع ووجهوها إلى صدور الأهالى، ولم يصمد المصريون ومعهم عرب الحجاز طويلا أمام هذه النيران الحامية، فانسحبوا إلى داخل القرية، فلحق بهم الفرنسيون، وتجدد القتال بين

الفريقيين فى الشوارع من بيت إلى بيت، واستبسل الأهالى والعرب فى الدفاع، وهنا أدرك الفرنسيون أن الدائرة ستدور عليهم، فأسرعوا باشعال النيران فى منازل القرية، وفى لحظة تحولت القرية إلى كتلة نار.. وامتلأت الشوارع بالقتلى من الأهالى وعرب الحجاز ، ويقول الدكتور نبيل الطوخى أن ما حل بالثوار كان عبارة عن مذبحة رهيبة، أو مجزرة لم يشهد لها الفرنسيون مثيلا من قبل على حد تعبير المصادر الفرنسية.

وبالرغم مما حدث من دمار، فإن البقية الباقية من الثوار لم تستسلم، وتجمعوا فى منزل حصين كان فيما مضى مقرا لكشاف المماليك وفى مسجد يجاوره، وتحصنوا فيهما، وأخذوا يطلقون النار على الفرنسيين واشتد القتال مرة أخرى. وتبادل الفريقان إطلاق النار، وحاول الفرنسيون دخول المسجد، فقوبلوا بنيران قوية اضطرتهم إلى التراجع، ولكنهم عادوا فأشعلوا النار فى المسجد... واحترف كل من كان بداخله.. ثم اتجهوا إلى البيت المملوكى وكان به عدد كبير من عرب الحجاز الذين صمموا على المقاومة حتى الموت، وظل الفرنسيون يحاصرون المنزل طوال الليل ونصبوا حوله المدافع، وفى الصباح استؤنف القتال، وأصدر الجنرال بليار أمره باقتحام المنزل ، ودخل الجنود إلى فناء المنزل، وأشعلوا النار فى محتوياته، وحينئذ نزل العرب إلى الفناء وكل منهم يحمل فى يده اليمنى بندقية، وفى اليسرى سيفا، وظلوا يطلقون رصاص بنادقهم على الفرنسيين فى بسالة وشجاعة حتى

آخر نفس من حياتهم، وعندما اقتحم الفرنسيون الفرق وجدوا بها ثلاثين بطلا من العرب لم يتمكنوا من القتال أو الفرار بسبب جراحهم، ويقول عنهم بليار فى رسالته إلى الجنرال ديزيه «كانوا لايزالون يريدون الدفاع عن أنفسهم فقتلوا جميعا، إلا ثلاثة تونسيين استبقيتهم لاستجوبهم».

مقاومة مستميته

ويختتم نبيل الطوخي عرضه لهذه المعركة الفريدة بقوله: أن الأهالى وعرب الحجاز - أو المكيين كما تنعتهم المصادر الفرنسية - قاوموا الاعداء مقاومة مستميتة شهد بها الفرنسيون حيث يقول رومينيك دى بيترو: «وفى الحقيقة أننا لم نشهد أبدا منذ قدومنا إلى مصر مقاومة بهذا العنف وبهذه الضراوة». أما عن دور المماليك فى هذه الموقعة التى استمرت ثلاثة أيام فكان دورا سلبيا. إذ أنهم طوال المعركة ظلوا فى معسكرهم فى الصحراء يشاهدون هزيمة حلفائهم من الأهالى والعرب دون أن يتحركوا لمساندتهم، وظلوا فى مأمن من ضربات الفرنسيين.

أما عن الخسائر التى لحقت بالثوار فقد ذكر الجنرال بليار فى رسالته إلى ديزيه أن الاهالى والحجازيين خسروا من خمسمائة الى ستمائة فرد، وعشرة من المماليك. أما عن خسائر الفرنسيين فقدرها بليار بحوالى ٣٥ قتيلا و١٣٤ جريحا. والمعروف أن الفرنسيين كان يميلون إلى التقليل من خسائرهم . ومما يؤكد أن عدد الجرحى من الفرنسيين كان أكثر من ذلك، ما يؤكده مصدر فرنسى معاصر اذ قال: كان ثمن

الانتصار الذى حصلنا عليه بعد كل هذا الجهد هو خسارة فى كل أنواع المؤن والرجال، لقد فقدنا اتزاننا تحت وطأة المعركة، لأنه كانت تقودنا فكرة واحدة هى تدمير الحواجز التى وضعت أمامنا، ولكن بعد هزيمة الأعداء (يقصد المصريين) عندما أعدنا الحسابات وجدنا أن ثلاثمائة من رجالنا أصبحوا غير قادرين على القتال، وأن كل الذخيرة قد انتهت مما عطل كل خطط الجنرال بليار فقد كانت نيته أن يتجه إلى الصحراء لكى يحارب المماليك وبضعة مئات من المكيين - أبناء الحجاز - الذين لجأوا إليهم عند بدء معركة أبنود لكنه أرجأ هذه العملية لحين حصوله على إمدادات.

وبالرغم من حرق الفرنسيين لمدينة أبنود، فإن الأهالى ظلوا يدافعون بكل ما يملكون من قوة لمدة ثلاثة أيام متوالية، وكانت هذه المعركة من أشد معارك الحملة الفرنسية هولا، وأطولها مدة، فلقد كانت سلسلة معارك دموية دامت ٧٢ ساعة، وكان إحراق أبنود وما أصابها من دمار أفظع مأساة وقعت فى معارك الحملة الفرنسية.



شهداء العرض

ضمن قائمة الشهداء المصريين الذين قتلهم الانجليز أثناء ثورة ١٩١٩، توقفت طويلا أمام أربعة شهداء فضلوا الموت على اغتصاب أعراضهم.. ومن المؤسف أن المصادر التاريخية لم تقدم لنا شيئا كثيرا عن حياة هؤلاء الشرفاء، فكتاب التاريخ - عادة - لايهتمون إلا بالمشاهير وذوى الأحساب والأنساب، أما الفقراء والبسطاء فجزاؤهم الاهمال والنسيان مهما بلغت تضحياتهم من أجل الشرف والكرامة، والعرض عند المصريين - رجالا ونساء - له قيمة تعادل قيمة الروح، ويجود الإنسان المصرى بنفسه وهو مرتاح الضمير، على أن يفرط فى عرضه، ولاتزال الصحف تطالعنا بأنباء نساء يفضلن الموت على العار.. ولعل فى هذا تفسير للمثل الشعبى السائر: اللى اختشوا .. ماتوا.. عن النسوة اللاتى فضلن الموت حرقا داخل الحمام الشعبى.. على الخروج وهن عرايا..

وما حدث لهؤلاء المصريين الأربعة، إنما جاء عرضا فى سياق الأحداث التى رواها المؤرخ الرافعى عن الجرائم الفظيعة التى ارتكبها جنود الاحتلال البريطانى ضد القرى الآمنة، ولم يكن الهدف من هذا الترويع المتعمد سوى نهب أموال الفلاحين وسلب حليهم، وسرقة مواشيهم وحرق بيوتهم.. ثم اغتصاب أعراض النساء إذا أتيحت للوحوش فرصة الاغتصاب تحت وابل الرصاص الذى يحصد الأرواح بلا رحمة أو شفقة من رسل الحضارة الأوربية، ولقد حدثت هذه الأعمال الاجرامية تحت سمع وبصر الضباط الانجليز، فلم تتحرك فيهم شعرة من نخوة أو مروءة.. وتركوا جنودهم كالضباع الكاسرة يعبثون فى أجساد النساء بحجة البحث عن الحلى والنقود دون وازع من خلق أو ضمير.

وشهدت بعض قرى الجيزة بداية هذه الجرائم اللاإنسانية عندما انقضت فرقة من جنود الاحتلال قبيل فجر يوم ٢٥ مارس ١٩١٩ على العزيزية والبدرشين، وانقسمت الفرقة إلى نصفين. اتجهت الأولى إلى منزل الشيخ إبراهيم رشوان عمدة العزيزية فأيقظوه من النوم، وطلبوا منه تقديم ما لديه من سلاح، وجمع كل مايوجد منه بالقرية. قبل مضى ربع ساعة، فقدم لهم المسدس الوحيد الذى يملكه، وفعلت الفرقة الثانية نفس الفعل مع الشيخ محمد منظور الدالى عمدة البدرشين ولم يكن عنده سلاح. واقتحم الجند المنزلين، وانسلوا إلى غرف النساء وكن مختبئات تحت الأسرة وقد استولى عليهن الذعر من هذا الهجوم المباغت فى تلك الساعة المتأخرة من الليل، وكسر الجنود الصناديق والخزائن عنوة، وسلبوا كل ما فيها من حلى ومال، ثم جذبوا النساء من

شعورهن وانتزعوا بكل فظاعة ما فى أيديهن ورقابهن من حلى، حتى إن أحدهم انتزع قرطا من أذن سيدة وفيه قطعة من لحم أذنها، وبعد الفراغ من سلب المال والحلى طلبوا من العمدتين أن يدلاهم على بيوت مشايخ البلدتين وأعيانهما، ففعلا مكرهين، فارتكب الجنود فى هذه المنازل مثل ما ارتكبوا فى منزلى العمدتين، وأعلن الضابط الذى يقود الجند أنهم سيضرمون النار فى القريتين وأنه سيسمح لكل شخص من الأهالى أن يأخذ ما فى بيته من مال وحلى قبل الرحيل عن البيت، ثم لم يلبثوا إلا قليلا حتى أضرموا النار فى الأحطاب والقش المكدس فوق الأسطح، وكانت النيران إذا خبت صبوا عليها البترول حتى تزداد اشتعالا، وانطلق الأهالى كالجراد المنتشر وسط المحرقة، فكان الإنجليز يستوقفونهم ويفتشونهم بحثا عن الأموال والحلى التى خرجوا بها، ولم يتورعوا عن تفتيش النساء بل كانوا ينقبون فى أجسادهن ويمزقون ثيابهن.. ويعبثون بموضع العفة من أجسامهن، واعتدى بعض الجنود على عفاف بعض النساء قسرا وغصبا، أما السيدة (عالية) زوجة الشيخ حسنين الجزار فقد قاومتهم فى إباء وشجاعة، فلما يئسوا من استسلامها أطلقوا عليها النار.. فلفظت أنفاسها فى كبرياء على أن تسلم عرضها لهؤلاء الأوغاد..

محاكمة صورية

ولما أكلت النيران بيوت البلدتين، فرت الأغنام والدواجن، فكان الجند الإنجليز يستولون عليها.. فإذا حاول أحد من الأهالى التدخل

لاطفاء الحرائق أطلقوا عليه النار فيردونه قتيلا، ومن الشهداء الذين حصدهم رصاص الإنجليز: إبراهيم عطوة الدالى ابن العمدة، وعبد الجواد سيد، وقد اغتالهما الإنجليز وهما فى عقر دارهما عندما توجسوا منهما روح المقاومة.. وعندما أشرقت الشمس كانت البلدتان قد صارتا قاعا صفصفا، وانصرفت الفرقة الإنجليزية وقد ساقت معها عمدتى القريتين ومشايخهما إلى الحوامدية، وهم سائرون على الأقدام، ومن خلفهم الجند يوخزونهم بأسنة الرماح لكى يحثوهم على الاسراع فى السير. فبلغوا الحوامدية عند الظهر، وهناك مثلوا أمام رهط من ضباط الإنجليز فى شكل محكمة، وقرأ عليهم رئيسها التهم الموجهة إلى القريتين، وهى أن بعض أهالى العزيزية تعدوا بالضرب على أحد الضباط الانجليز أثناء سيره فى الطريق المؤدى إلى أهرام سقارة، وأن أهالى القريتين اشتركوا فى إحراق محطتى الحوامدية والبدرشين، وعبثا حاول العمدتان نفى التهم عن الأهالى، وأثبت الأول بشهادة الشهود أنهم كانوا يحمون مصانع السكر بالحوامدية أثناء الاضطرابات، فلم يكترث الضابط البريطانى لهذا الدفاع، وأمر المعتقلين بالتوقيع على إقرار مكتوب يبدون فيه أسفهم على ماحدث من تخريب خط السكك الحديدية، وما وقع من اعتداء على الجنود البريطانيين، ويقرون فيه بأن ماحدث لبلديهما هو عمل مشروع وفى محله، وأنهم مستعدون لتقديم مايطلب منهم من العمال لاصلاح السكة الحديد، ويقبلون المحاكمة أمام المجلس العسكرى إذا هم قصروا فى أداء تعهداتهم، وأكرهوا تحت التهديد بالقتل على توقيع الاقرار..

فى نزلة الشوبك

وبعد خمسة أيام من هذا العدوان البربرى، شهدت قرية نزلة الشوبك أدهى وأفظع مما وقع فى البدرشين والعزيزية، فبعد ظهر يوم ٣٠ مارس ١٩١٩ اقتحم الجند الانجليز بيوت القرية، وسلبوا منها كل ماتصل إليه أيديهم من حلى ونقود ودواجن، واعتدوا على أعراض الناس، وعندما حاولوا اغتصاب زوجة الفلاح عبد التواب عبد المقصود، ثارت الدماء فى عروق الرجل، ودافع عن زوجته دفاع الأبطال، غير عابىء بالقوة الغاشمة التى تتكالب عليه، وعندئذ أطلقوا عليه الرصاص، وكذلك فعلوا مع شيخ الخفراء الذى لم يعرف اسمه، أما زوجة سليمان محمود الفولى فقد رفضت الاستسلام للاغتصاب فأطلقوا عليها النار وهى تدافع عن عرضها..

واشتدت مقاومة الأهالى لهذه الأعمال الوحشية، فما كان من الانجليز إلا أن فتحوا نيران بنادقهم على الأهالى بطريقة عشوائية، فقتل من الأهالى واحد وعشرون شهيدا، وجرح إثنا عشر رجلا، ثم أشعلوا النار فى بيوت القرية فدمروا مائة وأربعين بيتا من ٢١٠ بيوت هى كل منازل القرية، أما أفظع ما ارتكبه رسل الحضارة البريطانية أنهم قبضوا على أحد مشايخ القرية واسمه عبد الغنى إبراهيم طلبة، وأخيه عبد الرحيم، وابنه سعيد، ومعهم خفاجة مرزوق من الأهالى، ودفنوهم فى باطن الأرض حتى أنصاف أجسادهم - بدعوى التحقيق معهم - ثم أطلقوا عليهم الرصاص، وهم على هذه الحال.

هذه بعض الجرائم التى ارتكبها الاحتلال البريطانى الذى جاء إلى مصر بزعم إعادة الأمن والاستقرار إلى ربوعها، وبزعم تعليم

المصريين مبادئ التحضر والمدنية. وتحريرهم من التخلف والهمجية(!!) فماذا فعلت سلطات الاحتلال عندما وصل إلى مسامعها نبأ الجرائم البربرية التى ارتكبها الجنود؟ هل ثارت للمبادئ والقيم الإنسانية وقامت بمحاكمة المجرمين الذين اعتدوا على الأعراض وقتلوا النساء، وسلبوا الأموال وأحرقوا القرى(!!).

لم يحدث شئ مما تطفح به كتب الحضارة البريطانية، وأصدرت القيادة العسكرية بيانا طافحا بالأكاذيب قالت فيه: أذيعت أخبار كاذبة فيما يتعلق بحوادث يقال إنها وقعت فى العزيزية، وقد طلب إرسال بلاغ عن الحقيقة، فأبلغ الضابط المتولى القيادة هناك أن القرويين فى العزيزية والبدرشين اشتهروا بإيواء البدو المسلحين، وقد أجرى البحث فى القريتين بناء على ذلك يوم ٢٦ مارس (صباح يوم العدوان الوحشى) فوجدت فى العزيزية كمية من الأسلحة، وقد حاول المشاغبون أثناء البحث الهرب بالقفز من سطح إلى آخر، فأفضى ذلك إلى سقوط الأسطح تحت ثقلهم، وقد سبب سقوط الأسطح فوق النيران أو مصابيح الزيت فى المنازل نشوب بعض الحرائق فى القرية(!!).

وقالت عن نزلة الشويك: وجد قطار كان يشتغل بأعمال الاصلاح فى أثناء سيره جنوبا بعد ظهر يوم ٣٠ مارس جماعة من القرويين يعبثون بالخط الحديدى فى جوار الشويك، وقد قتل خمسة من الذين كانوا يشتغلون بتدمير الخط، وأطلقت النار بعد ذلك على القطار من القرية، فأخرج الجنود أهلها(!!)

إلى هذا الحد بلغ التضليل والكذب عند قادة الاحتلال البريطانى. ولاشك أن كاتب البلاغ لايعرف شيئا عن طبيعة الريف المصرى، وكيف أن سقوط الأسطح يؤدى إلى إخماد النار، وليس إشعالها كما زعم «الخواجة» كاتب البلاغ الذى حاول تبرئة جنوده عن طريق تدبيج الأكاذيب التى لايصدقها طفل..

وكان لهذه الفظائع وقع أليم فى نفوس أهالى الجيزة، مما دعا مجلس مديريتها للاحتجاج عليها، فاجتمع المجلس خصيصا لهذا الغرض فى جلسة غير عادية يوم الأربعاء ٩ إبريل ١٩١٩ بديوان المديرية برئاسة أحمد حمدى سيف النصر باشا، وقد نشر الرافعى نص الاحتجاج المكتوب الذى أقره المجلس. وجاء فيه: تقدمت إلينا من بعض أهالى مديريتنا، بصفتنا نواب الأمة المنتخبين عنها فى مجلس المديرية، شكاوى عما حدث فى بعض بلاد المديرية من الاعتداءات الفظيعة، والجنايات الفتاكة بهيكل الإنسانية، وحرمة الفضيلة، تلزمنا مراكزنا النيابية بالنظر فيها وتبليغها للجهات الرئيسية المسئولة بالقطر المصرى، ولقد صدرت تلك الشكايات من نفوس مكلومة، وأفئدة جريحة، تعبر عن آلام قد أحسسنا بها جميعا، ولم نقف حيالها هذه المدة، إلا انتظارا لتصريفها بالحكمة والعدل، ولكننا - مع الأسف - وجدنا أن الصوت الصاعد من صدر هذه الأمة، لايصح إلا أن يكون مؤيدا تأييدا تاما مادامت العدالة لم تأخذ مجراها القانونى.

وسرد الاحتجاج ألوان الفظائع التى ارتكبها جنود الاحتلال، «ومنها ويالِلأسف ــ الاعتداء على الأعراض اعتداء يندى له وجه الفضيلة

خجلا وتنتحر أمامه المروءة والشهامة، كما ثبت كل ذلك فى محاضر التحقيق الرسمية التى أجرتها جهة الاختصاص، وأنه ليسوؤنا جميعا أن صدرت البلاغات الرسمية عن تلك الحوادث مخالفة للحقيقة، ومنافية للتحقيقات الرسمية»..

وتعرض الاحتجاج لتفنيد حجج القوات المعتدية، وتفسيرها التفسير الصحيح وأن الغرض منها تأديب المصريين على تأييدهم الثورة وزعيمها الذين حيل بينهم وبين إبداء مطالب الأمة والتعبير عن رغباتها بكل طريقة ووسيلة لتحيا مصر حياة الأمم التى لم تكن مثلها فى الذكاء والنبوغ، وأن هذه المطالب ماكانت محرمة فى أى قانون من القوانين ليحال دون وصولها إلى حيث تريد الأمة عن بكرة أبيها، خصوصا وأن مبدأ مظاهرتها بهذه المطالب كان سليما محضا، بل أن الاستقلال التام الذى هو أهم تلك المطالب وأولها والذى هو بغيتنا جميعا، لا نستطيع أن نقول بأن أمة عظيمة كالأمة البريطانية تقف فى وجهه، خصوصا وأنها من كبار الأمم الحرة وحليفة الأمم الأخرى مثلها التى حاربت معها على تأييد حقوق الشعوب وحرية الأمم، وأن الوقوف حجر عثرة أمام مطالبنا المشروعة، يعتبر وقوفا فى وجه الرأى العام، وإننا لنجهر أيضا بأننا نشك فى أن هذه المصائب الشديدة والبلايا الفادحة، التى وقعت من بعض جنود الجيش البريطانى، على رأس الأمة المصرية المطالبة باستقلالها، ترضى عنها الأمة البريطانية أو تبرر حدوثها، وأننا ننتظر بصبر نافذ حكم الأمة البريطانية حيال هذه الجنايات التى ارتكبت بواسطة جنودها بعد أن أبدينا حقيقتها من واقع التحقيقات التفصيلية فى المحاضر الرسمية للحكومة المصرية.. لهذا

نرفع أولا احتجاجاتنا الشديدة عما حدث فى مديرية الجيزة من الاعتداءات ضد الحركة الوطنية، ونطلب ثانيا أن يبلغ هذا الاحتجاج لعظمة مولانا السلطان (فؤاد) وللجهات المسئولة فى القطر المصرى مشفوعا بنداء الأمة المصرية ومطلبها الوحيد وهو «الاستقلال التام» كما نطالب بأن يرفع عن عاتق الأمة حالا كل ما يضاد النداء بهذا الاستقلال التام المنشود!! وهكذا ربط الاحتجاج بين الحوادث اليومية وقضية الكفاح الوطنى..

اعتداء على شخصى بالذات

وبعد أن تلا المدير هذا الاحتجاج، قال أنه بعد أن تلقى شكاوى الأهالى أحالها إلى التحقيق عن طريق الأستاذ إبراهيم دسوقى أباظة (والد الأديب ثروت أباظة) بصفته مأمور ضبط المديرية «الذى أثق به وأعتبره كشخصى فى إجراء مثل هذه التحقيقات وترجمتها» وقال المدير إنه أرسل كل ذلك إلى وزارة الداخلية، وصورا أخرى من التحقيقات إلى دار الحماية البريطانية ولمركز قيادة الجيش البريطانى بفندق سافوى بناء على طلبهما، وأنه تلقى منهما مايفيد العناية بالموضوع وأنه تقرر تشكيل لجنة لاعادة التحقيق بخلاف اللجنة البريطانية الأولى،ثم قال المدير: وبما إنى اعتبرت أن هذه الحوادث كأنما وقعت على شخصى بالذات، فإنى أصرح لكم بأنه إذا لم يرضنى التحقيق الذى سيعمل، فإنى لن أتوانى عن الاحتجاج عليه بكل قواى مهما ضحيت فى ذلك من الجهد والمركز..

وقال عضو المجلس محمد أفندى منصور عطا الله: إنه حتى اليوم الثالث من حادثة نزلة الشويك كان الأهالى يجدون جثث قتلاهم خلال مزارع القمح، أو طافية فى الترع، وأن ما أعدم من المواشى برصاص الانجليز يفوق كل تقدير، وأن حاصلات الذرة التى كانت منشورة للتجفيف بحرارة الشمس، رشها الإنجليز بالبنزين وأحرقوها، وعقب العضو أحمد بك المليجى بأن قواد الجيش البريطانى يرسلون قواتهم إلى القرى الهادئة التى لم تحدث منها أى مخالفة، وأن مركز الصف لم يحدث منه أى اعتداء، ومع ذلك أرسلوا إلينا أورطة من الجنود. وأتوقع أن يحدث لنا مثلما حدث لغيرنا، وقال فضل بك الزمر: إنه حدث بالأمس فى امبابة، بينما كان القطار سائرا بالأهالى يحملون الأعلام ابتهاجا بالسماح للمصريين بالسفر إلى مؤتمر الصلح بفرنسا، أن أعتدى بعض الإنجليز على القطار، ورموه بالرصاص فقتلوا اثنين بالرغم مما جاء فى منشور القائد العام ولذا فإنى أحتج بشدة على هذه الجنايات الشائنة التى لاينقطع حدوثها.

وقال كل من عبد الواحد بك القط، ومحمد أفندى منصور: لقد علمنا أنه تجرى الآن بمركزنا (العياط) تحقيقات مع الأهالى بواسطة مجلس عسكرى بريطانى، وهو مجلس له سلطات واسعة ويقضى بعقوبات صارمة منها القتل والجلد، ولايضم أعضاء مصريين، وسيترتب على ذلك إيقاع عقوبات فادحة على الأبرياء، لأن تحقيقات ذلك المجلس تبنى على بلاغات كاذبة، لهذا نطلب سرعة إيقاف أعمال المجلس، كما

نحتج على استمرار اعتقال عمدة نزلة الشوبك منذ الفظائع التى ارتكبها جنود الاحتلال..

وبعد سماع هذه البيانات أصدر مجلس مديرية الجيزة القرار التالى: قرر المجلس بالاجماع الموافقة على جميع الاحتجاجات الواردة بهذا المحضر.، وإبلاغ جميع ما دون فيه لحضرة صاحب العظمة السلطانية، ولأولياء الأمور، وللهيئات الرسمية فى القطر المصرى.

بائع البطيخ... نابغة الطب

إذا كان رفاعة الطهطاوى هو أشهر شباب البعثات الذين أوفدهم محمد على باشا إلى فرنسا، فإن منهم من لايقل عنه نبوغا، أولئك هم شباب مصر الذين برعوا فى علوم الطب والهندسة والفنون وغيرها وقامت على سواعدهم نهضة مصر الحديثة ويتضاعف قدرهم فى أعيننا إذا تذكرنا أن هؤلاء الرواد نبتوا من دوحة الأزهر، ولم يحصلوا من العلوم إلا النزر اليسير، فلما أتيحت لهم فرصة التعليم العالى فى جامعات أوربا، كشفوا عن أصالة وقدرة على استيعاب العلوم العصرية..

من هؤلاء الرواد.. نابغة الطب إبراهيم باشا النبراوى الذى وصفه العلامة على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية بأنه أنجب من اشتهر فى الجراحة، وأنه ذو أقدام على مالم يقدم عليه غيره، وأنه يجرى العمليات الجراحية المنتجة للصحة ولم يسبقه فى ذلك غيره، وذاع صيته وبلغت

أخباره عزيز مصر محمد على فاختاره طبيبا خاصا له، واصطحبه فى رحلته إلى أوربا عام ١٨٤٨ وكثرت عليه الإغداقات وانتشر ذكره وطلبته (الفاميليات) أى العائلات الكبيرة والأمراء، وبعد عودته من البعثة عين مدرسا بمدرسة الطب المصرية التى أنشأها العلامة الفرنسى «كلوت بك» وترقى فى المناصب العلمية إلى جانب اهتمامه بترجمة المؤلفات الطبية، فترجم لأستاذه كلوت بك عن الفرنسية ثلاثة كتب وبعد استقالة كلوت بك عين إبراهيم باشا النبراوى وكيلا لكلية الطب بعد أن ثبتت جدارة المصريين، وإحلالهم محل الأجانب، وظلت مكانته ترتفع عند الأسرة العلوية فاختاره الوالى عباس الأول طبيبا خاصا له، ونال لديه الحظوة العظمى، ولما سافرت أم عباس الأول لأداء فريضة الحج صحبته معها ليشرف على صحتها وصحة من معها من الحجيج، وظل إبراهيم باشا النبراوى متربعا على عرش الطب إلى أن لقى وجه ربه فى عام ١٨٦٢ .

ولهذا الرائد العظيم قصة أقرب إلى الخيال.. فقد بدأ حياته فى قريته نبروه صبيا يعمل فى فلاحة الأرض إلى جانب أبويه الفقيرين، وكان كل حظهما من حطام الدنيا بضعة قراريط من الأرض يشقيان فى زراعتها بالخضراوات أو الفواكه، ثم يقوم الأب ببيع محصوله فى عاصمة المديرية (طنطا) عسى أن يعود بربح أوفر مما يحصل عليه فى القرية، وفى هذا المناخ المترع بالشقاء والشظف والحرمان عاش الصبى «إبراهيم» كما يعيش ملايين الصبية من أقرانه فى ريف مصر. وعرف طريقه إلى الكتاب فحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة

والكتابة والحساب، ثم لاح له أن يساعد أبويه فى كفاحهما، ويوفر على أبيه مشقة تسويق بضاعته فى المدينة، وجنح به طموحه أن يقتحم العاصمة - فهى أكبر المدن وأعظمها - ومن ثم تصور أن يكون العائد متناسبا تناسبا طرديا مع حجم المدن. ولابد أن يكون أهل القاهرة أقدر من غيرهم على دفع أثمان تفوق مايدفعه سكان المدن الصغرى فيعود إلى أهله ومعه المال الوفير الذى يخفف عنهم مشقة البؤس.

كان الأب قد زرع قراريطه بالبطيخ، فلما نضج، حمل إبراهيم محصوله على ظهر جمل استأجره ومضى يشق مسالك الدلتا نحو القاهرة، واتخذ طريقه إلى حى الجمالية حيث الكثافة السكانية، فلما عرض بضاعته للبيع لم يجد الثمن الذى كان يبتغيه، ثم رأى أن يتمهل ولايتسرع فى البيع حتى تصل الأسعار إلى المستوى المنشود.. ومضى يوم واثنان دون أن تتزحزح الأسعار إلى الأعلى.. وعندئذ وجد أن الوقت ليس فى صالحه، وعوامل الطبيعة تعمل على إفساد البطيخ وبواره.. حتى إذا انتهى العرض والطلب. وجد أن خسارته فادحة، وأنه قد خرج من المولد بدون حمص، كما يقول المثل، وعز عليه أن يعود إلى أبويه خالى الوفاض، بعد أن وعدهم بالخير العميم، فدفع بما تجمع لديه من مال قليل إلى صاحب الجمل الذى استأجره من نبروه، وطلب منه العودة إلى القرية ويبلغ والديه عن أسفه لعدم قدرته على الوفاء بما وعد، وأنه سيبقى فى العاصمة ليشق طريقه عسى أن تعوضه الأيام عن الخسائر التى منى بها.

فى رحاب الأزهر

عن هذه المرحلة الجديدة من حياة إبراهيم النبراوى يذكر المؤرخ الدكتورجمال الدين الشيال أن إبراهيم ساقته قدماه إلى إحدى الحوارى المجاورة للجامع الأزهر، وقد أنهكه التجوال بحثا عن عمل، وبينما هو جالس راح ينظر إلى المارة من أهالى الحى، وهو يلعنهم ويلعن بلدهم فى نفسه، وجذب انتباهه منظر غريب طريف، لقد نظر فرأى شيخا كبيرا ذا لحية طويلة بيضاء، بيده كتاب، وبيده الأخرى مسبحة يرسل حباتها الواحدة بعد الأخرى، وعن يمين الشيخ وعن شماله ومن ورائه عدد كبير من الفتية المعممين، والشيخ يسير فى تؤده ووقار، والفتيان يتبعونه فى أدب جم واحترام بالغ، وتتبع إبراهيم هذا الموكب، واستعاد فى ذهنه صورة شيخ القرية وكتابها وأقرانه من الصبية الصغار.

وانتهى المسير بالشيخ وتلاميذه إلى باب المسجد فدخلوه، ومال إبراهيم إلى جار له وسأله عمن يكون الشيخ، وعما يكون المسجد، فذكر له أن هذا المسجد هو الأزهر، وأن هذا أحد شيوخه، وأن هؤلاء تلاميذه الذين يتلقون عنه العلم، فبهرته الصورة، واستهواه وقار الشيخ، وزى الفتية وهم يرفلون فى جببهم وعمائمهم، ولمعت الفكرة فى خياله لمعان البرق فانتفض واقفا، واتخذ سبيله إلى المسجد ودخل مع الداخلين وراعه كثرة حلقات الدرس، كل شيخ يجلس بجوار عمود ومن حوله التلاميذ يحيطون به فى شكل حلقة، وهم يستمعون إلى أستاذهم فى اهتمام، وجلس إبراهيم إلى أقرب حلقة واستمع ثم استمع، ثم انتقل إلى حلقة ثانية، وثالثة ورابعة.. ولم يكد ينتهى اليوم حتى قر عزمه أن

يصبح أزهريا يطلب العلم كما يطلبه مئات غيره من المنكبين على الكتب ينهلون من صفحاتها مايعمق ثقافتهم، فعل ذلك وفى ذهنه أن يعود يوما إلى قريته نبروه وقد صار عالما مرموقا فيصبح شيخا للقرية ينحنى الجميع لتقبيل يده، ويسعون إلى رضائه، وتقبل عليه الدنيا فيعوض الخسائر التى لحقت به من صفقة البطيخ.

إلى مدرسة الطب

ومضت الشهور وابراهيم يكشف عن نبوغ فطرى، واستعداد طيب لتلقى المزيد من العلوم، حتى لفت نظر شيوخه وأساتذته، وكان يلقى من تشجيعهم مايحفزه على التعمق.. إلى أن كان أحد الأيام حين أرسل إليه شيخه يستدعيه، فهرول مجيبا، ولكنه لم يكد يقبل عليه حتى وجد فى حضرته جماعة من الناس، فيهم من يرتدى زى أمراء الجيش، ومنهم من يتزيا بزى الشيوخ، وتقدم إبراهيم فقبل يد أستاذه، فتلقاه الشيخ بالترحيب، وتوجه بالحديث إلى الضيوف وهو يقدمه إليهم بعبارات كلها إطراء وثناء، وفهم إبراهيم من الحديث أن هؤلاء السادة هم أعضاء لجنة جاءت إلى الأزهر لتختار نخبة من نوابغ الطلبة ليكونوا نواة مدرسة الطب التى يزمع محمد على إنشاءها، وعهد إلى كلوت بك بتأسيسها.

وهكذا انتقل إبراهيم النبراوى من طالب بالأزهر يتمنى أن يكون شيخا صاحب كتاب فى نبروه، إلى تلميذ فى مدرسة الطب الجديدة حيث يدرس علوما جديدة لم يسمع بها من قبل مثل الكيمياء والطبيعة والتشريح ودراسة الأمراض والأدوية، ويستمع فيها إلى أساتذة ليسوا من

دينه ولا من جنسه، فهو لايعرف لغتهم، ولايعرفون لغته.. وكلهم قادمون من فرنسا لإعداد أول فرقة من الطلبة لدراسة الطب، ثم إيفاد البعض منهم إلى باريس لتلقى الدراسات العليا المتخصصة.

وكما نبغ إبراهيم النبروای فی حلقات الأزهر، نبغ كذلك فى مدرسة الطب، وقضى سنوات الدراسة جميعا بنجاح وتفوق. فكان ضمن أفراد أول بعثة ذهبت إلى فرنسا لاتمام علومهم، وكان اختياره بترشيح من ناظر المدرسة كلوت بك الذى توسم فيه النبوغ. وسافر إبراهيم النبراوى إلى باريس عام ١٨٣٢ فوجد نفسه أمام عالم يختلف تماما عن عالم نبروه وطنطا والقاهرة.. الرجال غير الرجال.. والنساء غير النساء.. والأخلاق والعادات وطرق التعليم تختلف عن المحيط الذى عاش فيه.

وفى عاصمة النور خفق قلب إبراهيم بحب فتاة فرنسية فتزوجها، ولم يشغله الزواج عن المهمة التى أوفد من أجلها، ولابد أن تكون زوجته الفرنسية قد ساعدته على إتقان اللغة الفرنسية، وسرعة هضم العلوم التى كانت تلقى بالفرنسية.. حتى إذا أتم دراسته عاد إلى وطنه عام ١٨٣٦ وبصحبته زوجته الفرنسية، فعين مدرسا بمدرسة الطب المصرية، فكان من أوائل المصريين الذين شغلوا مراكز التدريس، ونجح مدرسا وطبيبا مثلما نجح طالبا فى الأزهر.. وأظهر مهارة فائقة حتى قصده الناس من كل فج، وبلغت شهرته مسامع محمد على فقربه إليه وجعله طبيبه الخاص.

زوج مخلص

وظل إبراهيم النبراوى وفيا لزوجته الفرنسية مخلصا لها، ولم يتزوج غيرها إلى أن أدركتها المنية فحزن عليها حزنا شديدا، وعندئذ أنعمت عليه (الوالدة باشا) أم الوالى عباس الأول بفتاة من حريمها اسمها «إشرافة» فتزوجها. وكان قد رزق من زوجته الفرنسية بولدين، أحدهما يوسف باشا النبراوى، وقد تلقى علومه الأولى بمصر، ثم أرسل فى بعثة إلى فرنسا سنة ١٨٥٥ فى عهد سعيد باشا للتخصص فى الفنون والعلوم الحربية وعاد إلى مصر عام ١٨٦١ فعين ضابطا فى الجيش المصرى، غير أنه لم يمكث به إلا قليلا، ثم عاد إلى فرنسا فأقام بها طويلا، وتزوج هناك من سيدة فرنسية، وكانت له جهود فى إقناع المسئولين الفرنسيين للموافقة على إنشاء المحاكم المختلطة، ثم استدعى إلى مصر بعد إنشاء هذه المحاكم وعين رئيسا لواحدة منها.

أما الابن الثانى «خليل» فقد التحق بمدرسة الطب المصرية وبعد دراسة بها أرسل فى بعثة طبية إلى فرنسا، وعاد إلى الوطن فى عهد الخديو اسماعيل وعين طبيبا بالمصلحة ومن نسل هذا الرجل العظيم رائدة النشاط النسائى السيدة «سيزا نبراوى» التى يذكرها تاريخ الأدب والصحافة المصرية فى الأربعينات من القرن العشرين.. وكانت سكرتيرة الاتحاد النسائى، وأصدرت العديد من المجلات التى كانت تدعو إلى حقوق المرأة.

هذه قصة فتى من قلب الريف المصرى، كما رواها المؤرخ الدكتور جمال الشيال، وقد تنقل القدر بهذا الرجل من بائع بطيخ فاشل إلى طالب بالأزهر، ثم انتقلت به عناية محمد على إلى مدرسة الطب ثم إلى فرنسا حتى أصبح طبيبا ومدرسا ووكيلا لكلية الطب، وطبيبا خاصا لحكام مصر، وارتقى به نبوغه إلى أن حصل على أكبر لقب فى وطنه وهو رتبة الباشوية. ولعل فى هذه القصة مايحفز شبابنا على الجد والجلد والمثابرة وقوة العزم.. أما الجانب الإنسانى فى شخصية إبراهيم باشا النبراوى فقد أشار إليه العلامة على مبارك، فقد وصفه بأنه كان إنسانا كريم الشيم رفيع الهمة، يغلب عليه الفرح والانبساط، فكنت تراه دائما مستصحبا للمغانى وآلات الطرب.. ولم تمنعه العلوم الطبية والعمليات الجراحية من أن يشبع هوايته وحبه للفنون والطرب.

الطشت والأبريق

لبى نداء ربه أمير البحار جلال الدين علوبة بك، الذى اكتسب شهرة تاريخية من خلال قيادته لليخت «المحروسة» الذى حمل الملك فاروق، ومعه زوجته ناريمان وابنهما الطفل أحمد فؤاد وبناته الثلاث من فريدة إلى منفاه فى إيطاليا بعد قرار خلعه وطرده من مصر يوم ٢٦ يوليه ١٩٥٢، وكان فاروق يأمل أن يبقى جلال علوبة ضمن حاشيته فى المنفى بحكم صداقتهما القديمة التى توطدت طوال الرحلات البحرية التى كان فاروق يقوم بها حول موانئ البحر الأبيض المتوسط، ولكن علوبة امتنع عن قبول العرض، وعاد بالمحروسة إلى الإسكندرية مما كان له أجمل الأثر عند قادة الثورة، وشكره الرئيس محمد نجيب على حفظه الأمانة وعلى أداء واجبه العسكرى، ووعده بأن يكون تصرفه الوطنى محل تقدير.. وبعد أيام صدر قرار بإحالته إلى التقاعد، وعاش جلال علوبة بقية حياته فى الإسكندرية قريبا من

البحر الذى أحبه، وظل موضع تقدير قيادة البحرية المصرية فتدعوه إلى حضور كافة الاحتفالات الرسمية.

وفى الحديث الذى نشرته صحيفة «الحياة» اللندنية، كشفت أسرة علوبة عن أسرار لم يرد ذكرها فى واقعة طرد فاروق. قالوا إن جلال علوبة كان إلى جوار الملك فى قصر رأس التين عندما قدم إليه رئيس الوزراء على ماهر باشا وثيقة التنازل عن العرش، وأن فاروق تردد فى التوقيع عليها، إلا أن جلال نصحه بالتوقيع حقنا لدمائه، وحفاظا على أمن البلاد، واستجاب فاروق لنصيحة صديقه، وعندما هم بالتوقيع لم يكن معه قلم، فسارع جلال علوبة بإخراج قلمه وقدمه إلى الملك فوقع على وثيقة التنازل، وظل محتفظا بهذا القلم «التاريخى» داخل صندوق يحوى النياشين والأوسمة التى حصل عليها.

والذين قرأوا نعى جلال علوبة فى «الأهرام» فوجئوا بأنه ابن أحد زعماء الحركة الوطنية المصرية، وهو المرحوم محمد على علوبة باشا، الذى خاض أغوار الحياة السياسية والقانونية والأدبية طوال النصف الأول من القرن العشرين.. وبدأ نشاطه العام فى الحزب الوطنى مع الزعيم مصطفى كامل، ثم مع خليفته محمد فريد، وحظى بعضوية الجمعية التشريعية منتخبا عن أسيوط، وعندما قام سعد زغلول عام ١٩١٩ باختيار أعضاء الوفد المصرى للسفر إلى مؤتمر الصلح فى باريس للمطالبة بالاستقلال، كان محمد على علوبة ضمن السبعة الكبار الذين تشكل منهم الوفد، وبعد الإفراج عن الزعيم سعد والسماح للوفد

بالسفر إلى باريس، أبحر محمد على علوبة مع بقية إخوانه، وانضم إلى سعد وصحبه، وتولى مسئولية أمانة صندوق الوفد، ومكث هناك سنتين إلى أن دب الشقاق والخلاف بين أعضاء الوفد، فعاد علوبة باشا إلى مصر وقرر اعتزال الحياة الحزبية، ولكن حبه للخدمة الوطنية جرفه إلى المشاركة فى تأسيس حزب الأحرار الدستوريين واختير سكرتيرا عاما ثم وكيلا للحزب، وشغل منصب الوزارة أكثر من مرة، ولكن زهده فى المناصب الوزارية دفعه إلى الامتناع عن دخول وزارة النقراشى الثانية عام ١٩٤٦ حتى بعد أن صدر المرسوم الملكى بتشكيلها دون أخذ رأيه فى عضويتها.. ثم خرج من عزلته وقبل منصب أول سفير لمصر فى دولة باكستان عام ١٩٤٩ بعد إعلانها. وقال فى تبرير ذلك: رأيت وأنا فى هذه السن ـ ٧٤ عاما ـ ورغم تعرضى لاختلاف المناخ، أن أضرب المثل لشبابنا المصرى فى وجوب الإقدام على العمل لخير مصر فى الداخل والخارج، ولا يخفى أن المصريين فى باكستان لايزيد عددهم على أصابع اليدين، بمن فيهم موظفو السفارة، فوجود العنصر المصرى فى الباكستان، ووجود صوت لمصر فيها، من أهم مايوطد الصلات التاريخية والإسلامية والسياسية بين البلدين، ولايخفى أن مصر من أكبر البلاد العربية والإسلامية، ففيها الأزهر الشريف، وفيها جامعاتها ومعاهدها العلمية، ومفكروها النوابغ وكتابها الإسلاميون المجيدون، ويجب أن تحتفظ بمكانتها الدينية والعلمية والأدبية بين المسلمين، وأن يذهب أبناؤها إلى هذه البلاد إخوة متعاونين مجاهدين لمجد العروبة والعرب، ورفع شأن الإسلام والمسلمين».

والبعد العربى والإسلامى فى حياة علوبة باشا، ظهر جليا فى نضاله المجيدمن أجل قضية فلسطين منذ تفجر الصراع الصهيونى العربى بعد الحرب العالمية الأولى، وتوثقت صلته بالقضية الفلسطينية منذ حادث «البراق» الذى أدى إلى صدام دموى بين العرب واليهود حول ملكية البقعة الملاصقة للمسجد الأقصى والتى هبط فيها البراق الذى حمل الرسول ﷺ حين مسراه من مكة إلى بيت المقدس، وقامت عصبة الأمم بتشكيل لجنة أوروبية محايدة للفصل فى النزاع وذهب علوبة باشا إلى القدس للمرافعة أمامها وقدم لها الحجج الرسمية التى تثبت تبعيتها للأوقاف الإسلامية، وأخذت اللجنة بهذه الأسانيد وقررت أن لليهود أن يذهبوا إليها لتأدية صلواتهم وعباداتهم باعتبار أن هذا كان منحة من سلطان تركيا، وتسامحا منه فى الماضى، وشجعه هذا الفوز على تكريس جهوده من أجل القضية الفلسطينية، ودعا إلى وحدة العرب فى منظمة رسمية لمواجهة الخطر الصهيونى واشترك مع الزعماء العرب الذين اجتمعوا فى شكل مؤتمر للدفاع عن فلسطين، وطاف بالبلاد العربية والإسلامية والهند لجمع جهود العرب، فكان أول من دعا إلى إنشاء «جامعة عربية» قبل أن تنشأ الجامعة ببضع سنوات، وكان آخر أعماله فى هذا الكفاح كتابه (فلسطين والضمير الإنسانى) الذى صدر عن كتاب الهلال عام ١٩٦٤ فكان أشبه بصرخة توقظ الضمير العالمى لرفع الظلم عن المنكوبين الذين عصف بهم الاستيطان الصهيونى.

وقصة حياة محمد على علوبة باشا تشبه فى وجوه كثيرة قصص الرواد المصريين الذين نبتوا من تراب مصر،وشقوا طريقهم إلى مراكز الصدارة دون أن تكون فى أفواههم ملاعق من ذهب، وإنما اعتمدوا على مواهبهم الشخصية، وعبقريتهم الخاصة، وكفاحهم الذاتى مثل العقاد وطه حسين وسعد زغلول ومصطفى النحاس وحافظ إبراهيم وعبد الرزاق السنهورى ومحمود فهمى النقراشى وأضرابهم من نجوم النهضة السياسية والأدبية، وكما يروى فى «ذكرياته» فإن جده لأبيه هاجر من الأراضى الحجازية عبر البحر الأحمر إلى القصير، واستوطن «جهينه» فى مديرية جرجا، ثم نزح إلى منفلوط ومنها إلى أسيوط وفيها ولد فتانا عام ١٨٧٥ وتلقى تعليمه فى كتاب الشيخ طه، وكان عبارة عن غرفة يتزاحم فيها الصبية والفتيات الكفيفات وتمرح فيها البراغيث، ولما أتم حفظ القرآن الكريم طافوا به شوارع أسيوط فى زفة تصدح فيها أنغام المزيكة، ودخل المدرسة الإبتدائية وبعدها شد الرحال إلى القاهرة ليتلقى التعليم الثانوى فى المدرسة الخديوية، ثم التحق بمدرسة الحقوق وتخرج فيها عام ١٨٩٩، وكان أول فرقته طوال مراحل التعليم، وعاد إلى أسيوط ليعمل محاميا فى وقت كانت فيه المحاماة مهنةحرة مفتوحة أمام العرضحالجية وأصحاب الألسنة الفصيحة، ولم يكن فيها محام واحد يحمل شهادة الحقوق سوى زميل عمره محمود بسيونى بك (رئيس مجلس الشيوخ فيما بعد) ولم يكن القضاة أرقى حالا من المحامين، وكان معظمهم من موظفى الحكومة السابقين بمجالس المديريات الملغاة ممن لايحملون شهادات الحقوق، ومن أطرف

ذكريات علوبة باشا عن تلك الفترة، مارواه للأستاذ طاهر الطناحى فيقول:

من الحوادث التى لا أنساها، أننى بعد أن ذهبت إلى أسيوط، وكان فيها مجلس استئناف بالوجه القبلى، قيدت نفسى محاميا أمام المحاكم الشرعية أيضا، ثم وكلت سنة ١٩٠٠ مع زميلى المرحوم محمود بسيونى بك للدفاع أمام المحكمة الشرعية الكلية عن سيدة كانت ناظرة على وقف لزوجها، وطلب خصمها - وهو من وجهاء المدينة ـ عزلها عن النظارة بحجة «الخيانة» كما قال محاميه الشرعى فى الدعوى، وذهبت مع زميلى للمرافعة فى هذه القضية، وكانت هيئة المحكمة مؤلفة من: رئيس المحكمة ووكيله، وأحد القضاة، وتعجبت عندما بدأت الجلسة فأخذ رئيس الجلسة يصفق بيديه مناديا الحاجب، بدلا من دق الجرس بزعم أنه «حرام» أو «مكروه»، ولما حضر الحاجب ملبيا النداء، إذا برئيس المحكمة يطلب منه احضار ثلاثة أكواب من شراب الخروب، فأحضرها، وشربها القضاة الثلاثة والجلسة منعقدة، ثم توجه نائب المحكمة قائلا للرئيس:

ـ هنيئا يافضيلة الأستاذ!

فرد تحيته بمثلها، وأردف: نشرب «السوبيا» فى المرة القادمة إن شاء الله.

الطشت والابريق

يقول علوبة باشا: فنظرت إلى زميلى بسيونى بك فى دهشة واستغراب وهمست فى أذنه قائلا: أهذا نظام المحاكم عندكم فى أسيوط؟

فلم يرد على بشئ خيفه أن يسمع القضاة الفضلاء، فيحدث مالا تحمد عقباه، ولما جاء دورنا فى الدفاع عن موكلتنا ناظرة الوقف، قدمت زميلى للكلام أولا، بوصفه أقدم منى عهدا، وفيما هو يملى دفاعه على كاتب الجلسة - كالمتبع فى ذلك العهد - صفق رئيس المحكمة مرة ثانية، وطلب من الحاجب أن يحضر الطشت والابريق كى يتوضأ لصلاة الظهر، ثم ترك كرسى الرئاسة شاغرا، وانتحى فى جانب القاعة وأخذ فى الوضوء، بعد أن صاح بزميليه قائلا: البركة فيكم!

ولما فرغ فضيلته من الوضوء، قام للصلاة والجلسة قائمة، وقد جلس مكانه فى كرسى الرئاسة زميله عضو الشمال، بينما استغرق زميلهما الثالث فى النوم!

ولاحظت أنا وزميلى اتجاه عضو الشمال للتحامل على موكلتنا وقد أصبح وحده المتصرف فى القضية وطلبت إلى زميلى أن يستدرك الأمر باستعمال حقنا القانونى فى رد ذلك القاضى، وألححت فى ذلك الطلب، حتى لايضيع الحق، وقال بسيونى بك للمحكمة وهو يفرك يديه فى شئ من الحياء:

- إن فى القانون شيئا أريد أن أبديه للمحكمة.

فسأله نائب الرئيس: ماذا تريد يامحمود أفندى؟

وما كاد زميلى يتلو مادة القانون التى نستند عليها فى رد المحكمة عن النظر فى القضية، حتى قال له ذلك القاضى:

- هل هذا يصح يامحمود أفندى.. ووالدك صديقى؟؟

فاعتذر الزميل بأنه يؤدى واجبا أباحه له القانون.. وبعد مناقشات، كان موقفنا فيها غاية فى الحرج، خلت هيئة المحكمة للمداولة، حيث انضم الرئيس إلى زميليه بعد الفراغ من صلاته، ثم عادت المحكمة للانعقاد بعد عشر دقائق، وأعلنت حكمها برفض طلب الرد، وبعزل موكلتنا عن نظارة الوقف، تلبية لطلب الخصم.

وفى مساء نفس اليوم، علمنا أن فضيلة عضو الشمال، الذى رأس الجلسة، غادرها بعد إصدار ذلك الحكم مباشرة، إلى حيث قابل خصم موكلتنا ـ الوجيه ـ وهنأه بصدور الحكم فى القضية لصالحه.. وهنا لم يسعنى إلا أن أقرر شطب اسمى من جدول المحامين العاملين أمام المحاكم الشرعية.

الحرية والعدل

ولعل هذه النقائص فى حياتنا العامة، هى التى دفعت علوبة باشا إلى أن يضع مؤلفه القيم (مبادئ فى السياسة المصرية) ويدعو فيه إلى بناء الحياة المصرية على أساس: الحرية والعدل والعلم.

أما عن الحرية، فيرى أن الأمة المصرية، تطلب الحرية العامة، أى تحرير البلد من كل احتلال سواء أكان عسكريا أم اقتصاديا أم فكريا، وأن يكون للفرد حرية موفورة وكرامة مرموقة، ومستوى فى العيش جدير بإنسان حر كريم، ولكن هذه الحرية لاتنال دون بذل وتضحية وجهاد، أن للحرية مهرها، فلا تزف إلا لمن كان كفؤا لها، جديرا بها،

ولقد تعلمنا منذ القدم أن السماء لاتمطر ذهبا ولافضة، وأن الأجر للعاملين، وأن حرية الأمم ترتكز على نهوض شامل يكاد ينحصر في عاملين أساسيين هما: العدل والعلم.

والعدل الذى يقصده علوبة باشا بمعناه الواسع الشامل، الذى يوحى إلى المرء أن يكون منصفا نحو الناس ونحو نفسه، ويعنى بالعدل النزاهة في جميع وجوهها، فكما أن ظلم الضعيف لمصلحة القوى خروج على العدل كذلك إهمال الموظف واجبه خروج على العدل واستغلال الحاكم سلطته لمصلحته الذاتية خروج على العدل».

والعدل والعلم - مجتمعين - هما أساس كل حرية، ومنبع كل قوة وعظمة، ومنهما وبهما نستوحى عوامل النهوض والإصلاح، وأن على أمتنا أن تفكر جديا فى وسائل إصلاحها إذا أرادت الحياة حرة كريمة، وعلى أبنائها - حكومة وشعبا - أن يتضامنوا ويتعاونوا فى تحقيق هذه الغاية المنشودة فى قوة وعزم وإيمان.. أما إذا ابتليت بتخاذل أبنائها، وتطاحن أحزابها - إن كان لها أحزاب - فقد قضى عليها بالذلة والفناء، ولن يجدى فى نهضتها إجراء وقتى أو إصلاح مرتجل.

أما مذكرات علوبة باشا فقد انتهى من إملائها قبل وفاته فى ٢٥ مارس ١٩٥٦، وأوصى أولاده بعدم طبعها أو نشرها قبل مضى ربع قرن على وفاته. وقد التزم أولاده بوصيته، ولم ينشروا مذكراته إلا فى عام ١٩٨١، رحمه الله بقدر ما أعطى لوطنه وأمته.



سعد فى المنافى

اعتقلت السلطات البريطانية الزعيم سعد زغلول مرتين: الأولى فى ٨ مارس ١٩١٩ ونفته مع ثلاثة من رفاقه هم: حمد الباسل ومحمد محمود وإسماعيل صدقى إلى مالطة، وكان هذا العمل بمثابة الشرارة التى فجرت مستودعا من البارود ففى اليوم التالى انفجرت الثورة الشعبية فى كافة أنحاء مصر واشتركت فيها كل طوائف الشعب من ملسمين وأقباط ورجال ونساء، وعمال وفلاحين وطلبة، وأثرياء وفقراء.. مما جلعها ثورة فريدة فى تاريخ الأمم والشعوب. وبعد الافراج عن سعد ورفاقه فى ٤ أبريل ـ أى بعد أقل من شهر ـ لم يعد سعد إلى مصر، وإنما أبحر إلى فرنسا ليعرض قضية استقلال مصر على مؤتمر الصلح المنعقد فى فرساى. وعند عودته إلى مصر فى ٢١ مارس ١٩٢١ ـ بعد عامين من اندلاع الثورة ـ استقبلته الأمة استقبالا لم يحدث لفاتح من الفاتحين. فكان توكيلا جديداً أبلغ من التوكيلات المكتوبة التى قدمتها الأمة لتفويض «سعد» فى المطالبة باستقلال البلاد.

ورغم أنه قد صار شيخا جاوز الستين، إلا أن عزيمته الصلبة وشكيمته القوية لم تدفع به إلى الهدوء والسكون فاستأنف الجهاد والنضال وكأنه شاب فى الثلاثين وحرك الأمة من أجل التمسك بحقوقها. وصارت مصر معه شعلة من الكفاح الوطنى، فكان الاعتقال الثانى فى ٢١ ديسمبر ١٩٢١. وفى هذه المرة كان معه ثلاثة من المسلمين هم: مصطفى النحاس وفتح الله بركات وعاطف بركات، واثنين من الأقباط هما: مكرم عبيد وسينوت حنا. وتم نقلهم من السويس إلى مستعمرة «عدن» ومنها إلى جزيرة سيشل بالمحيط الهندى ومنها إلى مستعمرة جبل طارق، تحمل «سعد» حياة النفى والتشريد دون أن تلين له قناة. ولم يهادن أو يساوم على مبادئ الوطنية وظل أمينا على ثقة الشعب فيه. وعاش فى المنافى صامدا صابرا لايشغل باله سوى مايعانيه المصريون من عنت واضطهاد وكان يشغل وقته فى المنفى فى الاطلاع والقراءة ودراسة اللغات الأجنبية وكتابة المقالات التى يبعث بها إلى الصحف المصرية ليحض الشعب على التماسك والوحدة فالوحدة الوطنية هى أثمن ماتجلى عن الثورة، وهى الصخرة التى تحطمت عليها دسائس الاحتلال.

قليل من المال والمتاع

يروى حمد الباسل باشا فى مذكراته كيف عاشوا فى مالطة بعد أن حملتهم السفينة «كاليدونيا» من بورسعيد، وليس معهم الا القليل من المال والمتاع: «وطأت أقدامنا ساحل مالطة، فألفينا مركبة صغيرة ذات عجلتين فى انتظارنا، فأركبنا فيها سعد باشا وأحد الأصحاب، وسرت أنا

والصاحب الرابع بجانبها على الاقدام وبعد ماسرنا مسافة طويلة، وصلنا إلى قشلاق «فردالا» الذى اختاره ولاة الأمر البريطانيون ليعتقلونا فيه، فخصصوا لكل واحد منا غرفة للنوم وغرفة للجلوس وكانت غرفنا كلها واقعه فى صف واحد بعيدا عن أماكن الجنود، فاسترحنا وأبدلنا ملابسنا، ثم سألنا عن التدابير التى اتخذت لإعداد طعامنا، فأجابونا بأنهم سيصرفون لنا كل يوم كذا دراهم من الخضار والزبدة، فاعترضنا على هذه المعاملة فقالوا أنهم سيختارون لنا طاهيا ألمانيا بارعا ليطبخ لنا مانشاءه من أطعمة، وإذا كنا نريد الحصول على مأكولات أخرى، ففى طاقتنا شراءها من «كانتين» الضباط من مالنا الخاص فسررنا بذلك، وجمعنا ماكان معنا من مال يسير لشراء مايطيب لنا من المأكولات، وطلبنا السماح لنا بمكاتبه أهلنا ليبعثوا لنا بمزيد من الأموال، فقالوا أنهم سيؤدون عنا هذه المهمة، وبالفعل تلقى كل منا - بعد يومين _ ٥٠٠ جنيه من مصر. وبعد ما استقر بنا المقام فى مالطة قال لنا سعد باشا أنه فرغ من إعداد برنامج معيشتنا فى منفانا، فخصص بعض ساعات النهار للدرس والمذاكرة، وخصص ساعات أخرى للمطالعة والمحادثة، وخصص مابقى من الساعات للتريض والتفكر، وإذ كان رجال القشلاق يطفئون أنواره الساعة التاسعة مساء طلبنا أن يتركوا أنوار غرفنا مضاءه حتى الساعة الحادية عشرة، فأجابوا طلبنا.

ويحكى «حمد الباسل كيف بدأ «سعد» يتعلم اللغة الإنجليزية، بعد أن فرغ من تعلم اللغة الفرنسية وقت أن كان مستشارا بالمحكمة المختلطة فيقول: ذات يوم التقيت فى مالطة برجل ألمانى - وكان معتقلا _ عرفته فى الفيوم وكان يعطينى دروسا فى اللغة الإنجليزية، فسررت بلقائه،

ولما عرف سعد باشا تاريخ علاقتى به كلفنى أن أطلب منه أن يعطيه دروسا فى اللغة الإنجليزية، فرضى الرجل عن طيب خاطر، وأخذ الرئيس يتلقن تلك اللغة على يده.

أخبار الثورة فى الصحف البريطانية

لم يكن سعد ورفاقه - فى مالطة - يعلمون شيئا عن أحداث الثورة التى عمت البلاد بعد اعتقالهم ونفيهم، وفى ذلك يقول حمد الباسل: كنا حتى ذلك الحين نجهل تماما ماحدث فى مصر من الحوادث عقب إبعادنا عنها، إذ أن القائمين على حراستنا كانوا يحولون دون تسرب الجرائد إلينا ولكن أحد الضباط المكلفين بحراستنا قال لنا: إنكم غادرتم مصر بعدما صيرتموها شعلة من نار. فأدركنا أن فى مصر حالة غير عادية ولكننا لم نشأ أن نكثر من السؤال والاستقصاء كى لاتحوم الظنون حولنا، وبعد يومين دخل علينا طاهينا الألمانى وأخرج من حذائه نسخة من جريدة «التيمس»، ودفع بها إلينا فقرأنا فيها أن الشعب المصرى هاج وماج على أثر القبض وأن مصادمات شتى وقعت بين الطلبة والجنود البريطانية، وأن الطائرات الإنجليزية ألقت قنابلها على الفيوم وقتلت أربعة منهم، وإن الجماهير أبدت مقاومة فى كل مكان.. وأن.. وأن.. إلى غير ذلك من أخبار الحركة التى كنا نجهلها كل الجهل، فترحمنا عندئذ على الموتى، وأدركنا أن الشعب المصرى جاد فى نضاله، فأقسمنا ساعتئذ على أن نفنى فى خدمته وفى الدفاع عن قضيته، وأن ننبذ الحياة المادية، ولا نهتم إلا بالشئون الوطنية وبتنا على أحر من الجمر نرقب ماتخبئه لنا الأيام من مفاجآت وبينما كنا جالسين ذات يوم

نتجاذب أطراف الحديث، دخل علينا ضابط كبير، وقال غدا سيطلق سراحكم ويسمح لكم بالسفر إلى باريس، ومالبث أن ذاع الخبر بين إخواننا المصريين المعتقلين فى مالطة، فأقاموا لنا حفلة كبيرة حضرها الألمان الذين كانوا معتقلين معهم أيضا، وبعد ما خطب كثيرون من إخواننا المصريين، نهض سعد باشا ورد عليهم بخطاب بليغ يفيض حماسة فقوبل بالتصفيق الشديد والهتاف المتواصل لمصر.. للوطن المفدى. وفى اليوم التالى قادنا الجند إلى المرفأ وظلوا يحرسوننا ويمنعوننا عن الاختلاط بالأهلين، إلى أن وصلت الباخرة التى كان مقررا أن تنقلنا إلى فرنسا، فدنا منا كبير الضباط وقال لنا «أنتم أحرار الآن ياسادة» ثم صافحنا برقة وبشاشة، وكم كانت دهشتنا عظيمة حيث ظهر لنا أنها نفس السفينة «كاليدونيا» التى نقلتنا من بورسعيد إلى مالطة، بل كانت دهشتنا أعظم حين فوجئنا بوجود سائر إخواننا من أعضاء الوفد المصرى، فذرفنا الدمع من اغتباطنا وابتهاجنا، وشكرنا الله على هذا اللقاء الفجائى الذى أدخل السرور على قلوبنا، وبعث روح الأمل فى نفوسنا ثم استأنفنا السفر إلى فرنسا ونحن نضع آمالا واسعة على نبى آخر الزمان رئيس الولايات المتحدة «الدكتور ولسن» صاحب المبادئ المشهورة الخاصة بتقرير مصير الشعوب الصغيرة المهضومة الحقوق، ولكن فى اليوم التالى لوصولنا إلى باريس، فأجانا «ولسن» بقراره الذى وافق فيه على حماية بريطانيا العظمى على مصر.. وأنى لا أصف مبلغ إندهاشنا واستغرابنا لما اطلعنا على هذا القرار. ولكن حسبى أن أقول أن عزيمة سعد كانت أقوى من أن يؤثر فيها «ولسون»

أو غيره ؟؟، فجاهر بأن الوفد المصرى سيمضى فى جهاده حتى الرمق الأخير من حياة أعضائه.

من عدن إلى سيشل

فى الاعتقال الثانى، نفى سعد زغلول ورفاقه الخمسة إلى «عدن» وظلوا فيها إلى أن أصدرت الحكومة البريطانية تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ واعترفت فيه بأن مصر مملكة مستقلة مع التحفظات الأربعة، وفى اليوم التالى تقرر نقلهم إلى جزيرة سيشل وكان مكرم عبيد - أثناء وجوده فى عدن - قد دوّن مذكراته عن تلك الفترة، ولكن السلطات البريطانية عثرت على هذه المذكرات التاريخية فى غرفته، فصادرتها، وفقدت المراجع التاريخية بذلك مصدرا هاما من المصادر التى سجلت صفحة مجيدة من تاريخ النضال المصرى، وبعد الافراج عن المنفيين، التقى الصحفى المعروف كريم ثابت مع مكرم عبيد الذى أفضى إليه بمعلومات هامة عن حياة زعماء الحركة الوطنية فى المنفى، فقال:

فى صباح اليوم الذى أذيع فيه تصريح ٢٨ فبراير فى مصر، كان «سعد» وصحبه جالسين فى قلعة عدن يتناولون طعام الافطار، فدخل عليهم ضابط برتبة كولونيل - كان يقوم بأعمال وكيل الحاكم، وقال لهم أنه تلقى أمرا بوجوب ابلاغ سعد باشا أنه سينقل - وحده - من عدن إلى جهة غير معلومة، وأن لديه ساعة ونصف ساعة لكى يعد أمتعته توطئه لانتقاله إلى السفينة الحربية التى ستقله إلى منفاه الجديد، فقابل سعد باشا النبأ الفجائى برباطة جأش عظيمة، وقابله صحبه بهياج شديد، فلما سألوا الكولونيل عن الحكمة فى فصل الزعيم عنهم، أجابهم بأنه

لايعلم شيئا عن ذلك، وأنه ينفذ التعليمات التى صدرت إليه فقط، فسألوه هل يستطيعون مرافقه الزعيم ليسهروا على راحته فى خلال سفره، كان جوابه أنه لا يملك سلطة نقض التعليمات أو تحويرها، فقرروا أن يرفعوا احتجاجا على سوء المعاملة إلى المقامات العليا، فحاول سعد باشا أن يثنيهم عن عزمهم لئلا يؤثر هذا الاحتجاج فى عودتهم إلى مصر، فلم يقتنعوا بوجهة نظره، وأصروا على مرافقته إلى النهاية، وفعلا عهدوا إلى مكرم عبيد كتابة الاحتجاج باللغة الانجليزية أو إذا كان ذلك متعذرا لصغر السفينة، فلا أقل من أن يسمح لأحدهم بأن يكون فى صحبته.

وبعد ساعة ونصف توجه سعد باشا إلى المرفأ ليركب السفينة التى خصصت لسفره، وسمح لصحبه بمرافقته إليها لتوديعه، فساروا حوله وهم يبكون بينما كان الزعيم يبذل جهده ليسكن من روعهم وهو ثابت الخطى، ولما صعد إلى السفينة، وأزفت ساعة الفراق، رفع منديله ملوحا، وأنشد بصوت مؤثر

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

وعاد أصحاب سعد إلى القلعة صامتين واجمين، وقد ساورهم الشك وهو أن وداعهم للرئيس فى ذلك اليوم قد يكون الوداع الأخير، ولكنهم ماكادوا يصلون إلى القلعة، حتى تلقوا نبأ الحاكم بالسماح لأحدهم بمرافقه سعد إلى منفاه الجديد فاغتبطوا بهذا النبأ بقدر ماكانت الظروف تسمح به من اغتباط، وبعدما نظروا فى الأمر مليا ورجعوا إلى سعد فى قرارهم، وقع الاختيار على مكرم عبيد ليكون رفيقه فى سفره، فحزم

أمتعته وانتقل إلى السفينة وسمح لسائر الصحاب بالصعود إليها لتوديعهما. وبعد يومين أقلعت بهما دون معرفة وجهة سيرها، وامتنع البحارة عن إجابتهما على أى سؤال، فلما مضت ثلاثة أيام فى عرض البحر أخبرهما الربان أنهما ذاهبان إلى سيشل، وكان مكرم ينام على سرير صغير يقابل السرير الذى كان الزعيم ينام عليه فى «القمرة» التى أفردت له. فلما حطت السفينة رحالها على ساحل العاصمة «ماهى» هرع سكانها لتحية سعد باحترام وإكبار لما سمعوه عن اسمه ومقامه بين قومه، فكان يرد لهم التحية باسما شاكرا، وأبلغهما الحاكم أنهما سيقطنان فى دار اختيرت لاقامتهما على ربوة تبعد عن البلد مسافة طويلة، فأعرب سعد عن رغبته فى مشاهدتها فحملوه إليها فى مركبة صغيرة يجرها رجل من أهل البلاد، وحملوا مكرم فى عربة مماثلة، فلما وصل إليها قال أن المسافة طويلة وإنه لو احتاج إلى طبيب أو إلى دواء، لفاضت روحه قبل أن يصل إليه الطبيب أو الدواء، وبعد أخذ ورد اقتنعوا بعدالة طلبه فأسكنوه وصاحبه فى دار قاضى كان غائبا فى أجازة.

وبعد أيام نقلوهما إلى جزيرة «ليلونج» على مقربة من «ماهى» فسر سعد بهذا الانتقال لأن المناظر الطبيعية فيها كانت تأخذ بمجامع القلوب، وأعد لسكنه دار فسيحة تحيط بها حدائق بديعة، وجعل سعد يقول لمكرم أن المرء يتمنى لو يتاح له أن يعيش مدة طويلة منعزلا عن الناس وعن ضوضاء المدن فى مثل هذه الجنة الفيحاء، وكان يعتقد - وهو يقول ذلك - أنه لن يعود إلى مصر حيا، وإلا .. ما الغاية من نفيه

فى تلك الجزر النائية بعدما كان معتقلا فى عدن !!، ثم يعود فيقول إن الأمر موقوف على ثبات الأمة.. ولى فيها عظيم الثقة.

الحياة فى سيشل

وكان سعد يمضى أوقاته فى سيشل فى التريض والتنزه تارة، وتجاذب أطراف الحديث مع مكرم تارة أخرى. وكانت أحاديثهما تتناول جميع الموضوعات الفلسفية والاجتماعية والأدبية، علاوة على البحث فى التطورات السياسية التى مرت بها القضية الوطنية، وكان سعد يقص على مكرم علاقته بالثورة العرابية وبعض الحوادث التى وقعت عند إنشاء الجمعية التشريعية. واكتشف أن مكرم يتمتع بصوت شجى، فكان يلح عليه بأن يسليه بانشاد بعض القصائد المشهورة للبارودى الذى كان سعد مولعا بشعره.

وبعد أيام أبلغ سعد باشا بأن صحبه الذين تركهم فى عدن سيفدون إليه، وفى اليوم المحدد لوصولهم، انتقل سعد ومكرم إلى جزيرة «ماهى» ولما رآهم سعد نازلين من الباخرة انهمرت الدموع من عينيه وقال: «إن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن أفارق الحياة وأنا بعيد عن أولادى». فدعوا له بطول العمر وكان سرور الجميع باجتماع الشمل يفوق الوصف وكانت السلطات المحلية قد استعدت لايواء النزلاء الجدد، فأعدوا لسعد ومكرم دارا تسعهما مع خدمهما، وأعدت للنحاس وفتح بركات وعاطف بركات وسينوت هنا داراً أخرى على مقربة من الدار الأولى وكان الجميع يتناولون طعام الغداء والعشاء على مائدة سعد باشا ليأنس بوجودهم حوله، ثم انتقل الزعيم والنحاس ومكرم وسينوت إلى دار

فخمة تقع على ربوة جميلة قدمهما لهم وجيه مسلم عاد إلى الجزيرة بعد غيابه عنها، وظل الأخوان (بركات) - وهما ابنا شقيقة سعد - يقيمان فى الدار الثانية وكان سعد يستيقظ من نومه مبكرا وبعد أن يغتسل ويرتدى ثيابه، يجلس بالبلكون منكبا على تعليم اللغة الإنجليزية، وكان مهتما جدا بتعلمها وبلغ من مغالاته فى الانهماك بها أنه كان يقرأها فى فراشه ولمدة ست ساعات مما دفع أصحابه إلى لوم مكرم على تشجيعه للزعيم لدرجة أنهكت قواه. وعندما يجتمعون للفطور يكون سعد أول الداخلين إلى غرفة الطعام ثم يتوافد الرفاق يتجاذبون أطراف الحديث الذى يدير الزعيم دفته، وبعدها ينتقل سعد ومكرم لدراسة اللغة الإنجليزية، وينفرد عاطف بركات بمطالعة الكتب أو متابعه دروس اللغة الفرنسية بمساعدة من مصطفى النحاس، ويجلس فتح الله بركات لتلاوة القرآن الكريم.. وهكذا كانت تمضى الحياة بهؤلاء الرجال فى جزيرة سيشل الغائرة فى أعماق المحيط الهندى حيث قضى الزعيم سعد زغلول وصحبه الخمسة أسوأ أيام النفى والتشريد بسبب سوء المناخ فى تلك المنطقة الاستوائية، وسمحت السلطات البريطانية بأن يلحق به تابع اسمه محمود أفندى عبد الله لكى يشرف على خدمته، ولم يكن الرجل خادما كما قد يتبادر إلى الذهن، بدليل أنه كان يتحدث الانجليزية، ويشترك مع مكرم عبيد فى تلقين اللغة لسعد زغلول، ومساعدته على إتقانها عن طريق المحادثة الشفهية، وعندما ساءت صحة الزعيم قررت الحكومة البريطانية نقله ومعه تابعه فقط - إلى مستعمرة جبل طارق التى تتحكم فى مدخل البحر الأبيض المتوسط بين أسبانيا والمغرب العربى، والتى تحمل اسم الفاتح الإسلامى

المشهور طارق بن زياد. وفي يوم ٢٠ اغسطس ١٩٢٢ جاءت بارجة بريطانية إلى سيشل وحملت سعد وتابعه، وبعد أسبوعين ألقت مراسيها في جبل طارق بعد رحلة بحرية مضنية. وهيأت له مسكنا لائقا داخل القلعة، وسمحت له بالحركة والتجول فى شوارع المدينة فيشترى احتياجاته بينما عيون أجهزة الأمن تراقبه من بعيد، رغم أنه أعطى للسلطات وعد شرف بأن لايتعدى حدود المستعمرة. يقول محمود أفندى عبدالله : كان الناس أثناء مروره فى الطريق يشيرون إليه بالبنان ويتهامسون باسمه، وقد لاحظ معاليه أن الطربوش يستلفت أنظارهم، فاشترى قبعة كان يلبسها كلما خرج للتنزه، وأحيانا كنا نستقل عربة تمر بنا حول الصخرة - التى أقيمت عليها القلعة - وقد رأينا بين أطلالها القديمة برجا يقول الناس أن بانيه هو طارق بن زياد، ولم يبق منه إلا رسومه، وقد أحاطته الحكومة بسور من الحديد، وهو قائم وسط خلاء شاهد لما كان للعرب من مجد أثيل، وعز تليد، وكانت المراسلات من والى الرئيس فى جبل طارق، غير ما كانت عليه فى سيشل، فإنها كانت حرة، لا رقابة عليها، لذلك كنا نتلقى كل يوم وابلا من الرسائل التلغرافية، كما كان يأتينا البريد بكثير من الرسائل من مصر كل عشرة أيام، ومن أوروبا كل أسبوع.

ومن ذكريات محمود عبدالله أن جريدة أسبانية تصدر فى جبل طارق، نشرت مقالة شديدة اللهجة كتبها تاجر أجنبى يعيش فى بورسعيد، وكان من أنصار الوطنية المصرية وصديقا قديما لمصطفى كامل وعلى يوسف، واسمه، «أفيجو» دعا فيها أهل جبل طارق والأسبان إلى الاحتفاء بسعد زغلول زعيم مصر الكبير وإكرامه، ويحثهم على

الاحتجاج على سجنه والسعى للإفراج عنه، ويشرح نتفا من تاريخ كفاحه، فما كان من السلطات البريطانية إلا أن عطلت الجريدة ولم تسمح لها بالصدور إلا بعد أن أعتذر أصحابها، وأكدوا أن الرسالة وصلتهم من مصر فنشروها بحسن نية، وتعهدوا بعدم تكرار هذا العمل(!!) .

وأراد سعد زغلول استئناف تعلم اللغة الإنجليزية، فطلب من الدكتور لوكهيد أن يبحث له عن معلم أو معلمة فأتى له بشاب من صف الضباط بالجيش الإنجليزى يعطيه أربعة دروس فى الأسبوع مقابل أربعة جنيهات شهريا، وقد تقدم فى هذه اللغة تقدما محسوسا وإنما كان يحتاج إلى زمن طويل لإخراج العبارات لعنايته الزائدة بتركيبها النحوى، أما صحته فأخذت فى التقدم منذ وصوله إلى جبل طارق حتى شفى من مرض البول السكرى، ولكنه سئم الوحدة - بعد أن فارق أصحابه فى سيشل - فبعث إلى قرينته صفية زغلول يطلب منها الحضور إلى جبل طارق فوصلت إليه فى ١٦ نوفمبر ١٩٢٢ وبرفقتها ابن شقيقته القاضى سعيد بك زغلول، والسيدة فهيمة هانم بصفة ممرضة لأم المصريين، وخادم وخادمة.

وعندما وصلت السفينة المقلة لأسرة سعد، ذهب بنفسه إلى الميناء لاستقبالها، وانتظر فى أحد المكاتب بينما ذهب محمود عبدالله إلى نهاية الرصيف وصحبهم إلى حيث كان الزعيم فى انتظارهم.. «وهناك كان البكاء وصرير الأسنان.. فقد بكى سعد.. كما بكت حرمه.. ولم يتمالك أحد من الحضور شعوره.. وعدنا جميعا إلى المنزل وقد غيم عليه شعور بالسعادة والسرور» .

إلى أن غادر محمود عبدالله جبل طارق، وعاد إلى وطنه بعد أيام قلائل.

مطلوب سكرتير خاص

وليس من المعروف الأسباب التى جعلت محمود أفندى عبدالله ينهى مهمته فى خدمة سعد زغلول ويعود إلى مصر، وهل ذلك برغبة منه أو بأمر من سعد ولكن يبدو من رسالة سعد إلى سكرتيره الخاص محمد كامل سليم أن سعد أعاد إلى مصر خادمه المصرى الوحيد الذى صاحبه، ومعه رسالة أخفاها الخادم فى حذائه، وفيها يقول سعد أنه فى حاجة قصوى إلى سكرتير خاص ليملى عليه رسائله وبرقياته، ويعتمد عليه فى شئونه الخاصة والعامة وقال سعد فى رسالته السرية أنه طلب ذلك من حاكم المستعمرة البريطانى فى جبل طارق، فرفض الحاكم بناء على أمر حكومته التى رأت ضرورة أن يظل سعد فى المنفى مشلولا عن كل نشاط، طمعا منها فى غير مطمع، أن تموت الحركة الوطنية وهو بعيد عنها فلا يغذيها ولا تغذيه، ثم رجانى سعد فى رسالته السرية أن أبذل قصارى جهدى، وأتحايل فى اختيار سكرتير خاص له يسافر إلى جبل طارق فى شكل خادم، بدل الذى عاد إلى مصر بحجة رغبته فى رؤية زوجته وأولاده وحذرنى سعد فى رسالته السرية من أن السلطات البريطانية سوف ترفض حتما الطلب لو ظنت أنه سكرتير وليس خادما، ولذلك يجب الاحتياط، وإلا فشل المسعى، وتعرضنا جميعا لانتقام الانجليز.

وحار محمد كامل سليم فى شأن هذا الطلب.. إذ كيف يحقق رغبة الزعيم الوطنى وهو فى منفاه؟ وكيف له أن يعثر على شاب متعلم يقبل

أن يكون خادما ويعرض حياته ومستقبله للأخطار؟ ثم كيف يخدع السلطات البريطانية بينما البلاد تحت الاحكام والرقابة مفروضة على الصحف وغيرها، وجنود الاحتلال يتجولون فى الشوارع، والمحاكم العسكرية قائمة لمحاكمة الوطنيين والتنكيل بهم؟ كيف العثور على فدائى يتحمل هذه المخاطرة؟

ومضى عشرون يوما والرجل حائر فى تلبية طلب الزعيم.. وإذا ببرقية ترد من سعد يستعجله فيها لتحقيق المراد.. ولم يجد محمد كامل سليم من يبثه هواجسه وأزمته سوى مساعده الأستاذ محمد الأنصارى.. وما أن سمع الأنصارى الحكاية حتى أبدى استعداده الفورى للقيام بهذه المهمة، ولم يتردد فى قبولها.. ودهش محمد كامل سليم لهذه المفاجأة.. وأوضح للشاب مدى الأخطار التى سوف يتعرض لها، وزيادة فى الصراحة والأمانة عدد له الأخطار فيما يلى:

١ ـ إذا ظن الإنجليز فى مصر أو جبل طارق أنك سكرتير، ولست خادما، فسوف تتعرض لعقابهم ولانتقامهم وللمحاكمة أمام المحاكم العسكرية، وتتعرض أنت وسعد زغلول لهذه المحاكمة.

٢ ـ لا أعرف متى تكون عودتك إلى مصر، فقد تمتد إقامتك فى المنفى إلى عام أو أكثر.

٣ ـ ما دمت مصرا على القيام بالمهمة ، فإن عليك أن تستخرج «رخصة خادم» وتلبس جلابية، ولا تأخذ معك فى السفر سوى بدلتين، ترتدى إحداهما، وتحفظ الثانية فى حقيبة صغيرة لا تحتوى إلا القليل من الملابس.

٤ ـ لا أستطيع أن أغريك بالمال، فليس عندى مال غير ماهيتى، وهى لا تزيد على عشرة جنيهات، وأجرة سفرك برا وبحرا فى الدرجة الثالثة، وخمسة جنيهات فى يدك مدة السفر، حتى تقابل سعد زغلول الذى سيتولى أمرك بعد ذلك.

سليل أسرة الأنصارى

الأمر المثير للغرابة أن محمد الأنصارى سليل أسرة الأنصارى العريقة فى أسيوط وأخوال رفاعة الطهطاوى قبل القيام بالمهمة الشاقة رغم هذه الحقائق المفزعة، وبعد أسبوع من الحديث عاد إلى كامل سليم وهو بالجلابية ويحمل رخصة الخادم، ومضى فى طريقه إلى جبل طارق ومعه رسالة من كامل سليم، ورسالة أخرى من قيادة الثورة إلى سعد زغلول أخفاها فى قرص طربوشه، فلما وصل إلى جبل طارق، تلقى كامل سليم برقية شكر من سعد بوصول الخادم، وأنه مسرور منه، وظل الأنصارى فى خدمة سعد سكرتيرا خاصا، وخادما أمينا حتى أفرج عن سعد.. ويصف كامل سليم هذا العمل بأنه يمثل قمة الروح الوطنية والفدائية التى تستهين بالروح من أجل الوطن، ولقد كان من الممكن جدا أن يتعرض الانصارى للموت أو الأشغال الشاقة بحكم من المحاكم العسكرية البريطانية لهذا العمل الذى قام به عن طيب خاطر، والأنصارى فى وطنيته الخالصة وشجاعته الفريدة لا يقل مطلقا عن إخوانه المجاهدين المصريين الوطنيين الذين نكّل بهم الإنجليز فى المنافى أو بأحكام الإعدام أو الأشغال الشاقة.

سباق على السفر

لماذا أراد سعد زغلول سكرتيرا خاصا على درجة من الثقافة والتعليم وهو فى منفاه فى جبل طارق؟

يقول مصطفى أمين فى (الكتاب الممنوع) أن سعد زغلول كان فى الواقع يريد شخصا يملى عليه تعليماته السرية التى يرسلها إلى القاهرة عواصم أوروبا، وهو فى ذلك الوقت لم يستطع ترتيب الشفرة السرية بينه وبين قيادة الثورة فى القاهرة، وهو يحتاج إلى الرجل الذى يعهد إليه بهذا العمل السرى الخطير، ويكتب فى مذكراته يقول: «أرسلت اليوم إلى كامل سليم تلغرافا نصه (يعود عبدالله حتما إذا أمكنك أن ترسل آخر يعرف العربية والإنجليزية)، ويخشى سعد ألا تفهم القاهرة ما يعنيه، فيكتب إلى كامل سليم يستحثه على إرسال خادم يعرف العربية والإنجليزية للاستعانة به على الكتابة وقضاء اللوازم فى بلد لا يتكلم أهله بغير الإنجليزية والإسبانية ويتلقى سعد تلغرافا من سليم يبلغه بأن عددا من تلاميذه يرغبون فى القيام بهذه المهمة ويستعدون للسفر، ومنهم الشاب محمود سليمان غنام، عضو لجنة الطلبة العليا، ولكن سعد يرفض وينهاه عن هذه المغامرة، ويفضل أن يكون الاختيار من أشخاص بعيدين عن الشبهات وعن مراقبة السلطة العسكرية البريطانية حتى يمكن خداعها، إلى أن تم العثور على «سفرجى ممتاز يجيد الطهى اسمه الأنصارى» وكان سعد يعرف الأنصارى، ويعرف أنه من الشبان الوطنيين المخلصين، وظل سعد مرتابا فى إمكانية وصول الأنصارى خشية افتضاح أمره، فلما وصل إلى جبل طارق تحولت القلعة التى فيها

سعد زغلول إلى مركز قيادة يعمل بالليل والنهار.. وأخذ سعد يملى عليه الرسائل المتضمنة الشفرة فكلمة «الجرائد الإنجليزية» تعنى التقارير السرية، و «كتاب الأجروميه» يقصد به النشاط السياسى فى مصر.

وبعث «الخادم» محمد الأنصارى رسالة إلى سعيد بك زغلول فى ١٢ فبراير ١٩٢٣ يقول فيها:

سيدى البك الجليل حفظه الله. السلام عليكم ورحمة الله وبعد، أبثك مزيد أشواقى القلبية وأتعشم أن تكون بصحة وعافية، بلغنى معالى الرئيس سلامكم، فشكرت لكم هذا الشعور الجميل، وإنى رأيت أن أكتب لك خطابى هذا، لأبثك مزيد شكرى، وإنى عند حسن ظنكم بى، فلا أخرج من المنزل إلا بأمر معالى الباشا أو الست (يقصد صفية زغلول) لقضاء بعض مصالح للمنزل، وإن صادف وأردت الخروج وهذا نادر جدا - للحلاقة مثلا - فإنى أستأذن معالى الرئيس، فإن كنت قد نسيت وصيتكم لى قبل سفركم إلى مصر، فلا أنسى توصية والدى وأهلى، كما أنى لا أنسى توصية أربعة عشر مليونا (تعداد الشعب المصرى) كما لا أنسى توصية أصدقائى وأحبائى الذين أوصونى بالتفانى فى خدمة الرئيس، وبغض النظر عن ذلك، فإن العطف والحنان والعناية التى يعاملنى بها معالى الرئيس وحرمه، هى فوق كل ذلك، مما يجعلنى أسير مودتهما، إننى أخدم هنا، فى اعتقادى لست كموظف أجير، ولكن كشخص يحمل أمانة، فعليه أن يحسن تأديتها، فإن خيرا فلنفسه، وإن أساء فعليها، هذا هو اعتقادى الراسخ، وما أظن مولاى بعد كل ذلك إلا مرتاحا من جهتى، فكن مطمئنا وطب نفسا.

ويتحدث الأنصارى فى رسالته عن الحياة اليومية التى تبدأ بقراءة الصحف الإنجليزية التى أتقنها جيدا حتى لم يعد يخطىء، كما صار ماهرا فى الترجمة من الإنجليزية إلى العربية، ثم يطلب من سعيد زغلول: أن ترسل لى كتب الترجمة الصغيرة المقررة فى ابتدائى، من سنة أولى إلى رابعة، لأنه يوجد بها بعض اصطلاحات لا بأس من أن يطلع معاليه عليها، كما أنه سر جدا من كتاب «براكنبورى» الذى أرسله إلينا كامل سليم، فهو يطالع فيه دائما، وقد أرسلت إليه أطلب منه بعض الكتب فلم يفدنى، فأرجوك أن تخبره بخطاب بألا يهمل فيها، وهى بأمر معالى الرئيس..

أنتم لا تعرفونه

●● بعد الإفراج عن سعد زغلول، سافر إلى فرنسا للاستشفاء بعد عناء النفى والتشريد من السويس إلى عدن إلى سيشل إلى جبل طارق، أما محمد الأنصارى فقد عاد إلى القاهرة بعد أن أدى المهمة الوطنية التى كلف بها رغم المخاطر، ونجح فى التنكر فى زى خادم، ونجح فى خداع السلطات البريطانية، وأفلت من رقابتها الصارمة.. والمدهش أن سعد زغلول - بعد أن أصبح رئيسا للوزراء فى ١٩٢٤ - رأى أن أقل تكريم لهذا الشاب الفدائى هو تعيينه فى وظيفة فى البرلمان بمرتب عشرين جنيها فى الشهر.. والأشد غرابة أن هذا التكريم قوبل بمعارضة شديدة من جانب الذين لا يعرفون الحقيقة.. ولا يعلمون شيئا عن الدور الذى قام به محمد الأنصارى.. وقالوا لسعد: كيف تعين خادمك الخاص بمرتب عشرين جنيها.. فكان يبتسم ويقول : «أنتم لا تعرفونه.. وعندما تعرفونه ستطلبون له أكثر من ذلك المرتب البسيط»..

شيخ الحارة

شيخ الحارة.. هل تذكرونه.. ذلك الشخص الذى كان أشبه بدائرة معارف متحركة.. يعرف كل صغيرة وكبيرة عن سكان حارته.. تواريخ ميلادهم ووفياتهم.. ومصادر دخلهم، وحوادث زواجهم وطلاقهم، يشارك فى أفراحهم وأحزانهم.. وينوب عنهم أمام أجهزة الحكومة.

لقد اختفى شيخ الحارة من حياتنا مثل السقاء وعربة سوارس وقطار الدلتا وشيخ الطائفة.. ولم نعد نقرأ عنه إلا فى قصص نجيب محفوظ، ونراه فى أفلام السينما ومسلسلات التليفزيون التى تتناول حياتنا الغابرة وهو يتبختر فى ثيابه البلدية وقد وضع على رأسه طاقية وقورا، وأحاط رقبته بلاسة حريرية، وتصدر أبرز مكان فى مقهى الحارة، محله المختار، ويتوافد عليه أصحاب الحاجات يطلبون وساطته فى مشاجرة، أو تقسيم تركة، أو الشهادة على عقد زواج، أو ضمان مواطن محتجز فى التخشيبة..

وشيخ الحارة كان يمثل عين السلطة، وحلقة الاتصال بينها وبين أهل الحارة.. فهو مصدر المعلومات عن أى شخص مطلوب أمام الشرطة، فى استطاعته أن يقدم المعلومات الصحيحة إذا كان من أصحاب الضمائر الحية، أما إذا كانت له ذمة واسعة ففى استطاعته أن يضلل العدالة، ويقدم لها معلومات مغلوطة، بل فى استطاعته أن يتستر على جريمة لصالح من يشترى ذمته، ولا يعنيه أن تهدر دماء، أو تضيع حقوق (!!).

ونظام مشايخ الحارات جزء من التراث الاجتماعى المصرى.. مثل نظام مشايخ الطوائف، حيث كان لكل طائفة شيخ ينظم شئونها، ويحافظ على تقاليدها ويرعى مصالح أتباعه، ويحاسبهم حسابا صارما إذا ارتكبوا ما يستحق العقاب، ولا يسمح لأى شخص بمزاولة المهنة إلا إذا حظى بموافقة شيخ الطائفة، وبعد امتحان يثبت فيه الطالب أنه جدير بالدخول فى صفوفها، فكان عندنا شيخ النجارين، وشيخ النحاسين، وشيخ الحدادين، وشيخ السقائين. بل كان للعميان طائفة لها رئيس، ولعبت هذه الطائفة دورا وطنيا فى إثارة الجماهير ضد الحملة الفرنسية، وشاركوا فى ثورة القاهرة فى أكتوبر ١٧٩٨م.. وبعد إخماد الثورة نكل بهم نابليون بونابرت وأمر باغراق شيخهم - سليمان الجوسقى - فى نهر النيل..

ويكاد يكون نظام شيوخ الحارات موازيا لنظام شيوخ الطوائف من حيث التنظيم الاجتماعى، وضبط العلاقات بين الطوائف والسلطة، أحدهما يقوم على مقر السكن، والآخر يقوم على الحرفة. فليس ثمة

انفصال بينهما، وفى بعض الأحيان كان هناك قيادات شعبية تجمع بين وظيفة شيخ الحارة ووظيفة شيخ الحرفة، وعرف تاريخ القاهرة فى أواخر القرن الثامن عشر بعض هذه الزعامات مثل: حجاج محمد الذى كان شيخ حارة الدراسة وفى نفس الوقت كان شيخا لطائفة البرادعية. الذين كانوا يصنعون البرادع للخيول والبغال والحمير، وسيلة الانتقال الوحيدة وقتئذ، وكذلك حجاج موسى، وكان شيخ حارة الحبالة، وشيخ طائفة النجارين معا.

متى بدأ هذا النظام

ولم توضح الدراسات التاريخية متى بدأ نظام مشايخ الحارات، ولم يهتم الباحثون بدراسة هذا الجانب من تاريخ مصر الاجتماعى، وربما لأنهم لم يجدوا فى كتب المؤرخين القدامى ما يهدى إلى نشأة هذا النظام والمهام المحددة التى كان يقوم بها شيخ الحارة، وعلاقته بالجهاز الإدارى للدولة، وربما لأن المؤرخين لا يعيرون اهتماماً لهذه القيادات المحلية التى تعيش فى قاع المجتمع دون أن تترك أثراً عميقا أو حدثا جليلا يستوقف نظر الباحثين. ولقد عثرت على دراسة حديثة للدكتور عبدالمنعم الجميعى أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة عن (شارع الحارات فى القرن التاسع عشر) ألقى فيها كثيرا من الضوء على هذا النظام الذى اندثر من حياتنا، حتى يبدو لنا كأحد الأنظمة المتخلفة المثيرة للتهكم والسخرية، لدرجة أن البعض كان يضرب المثل بالشخص الذى يوصف بالسفه والابتزاز والنهب والجشع بأنه «شيخ حارة». مثلما فعل «يعقوب صنوع» فى جريدته «أبو نظاره زرقاء»

عندما شبه الخديو اسماعيل باشا بشيخ الحارة. ومع أن هذه الوظيفة ظل يشوبها الكثير من العيوب والمفاسد، فانها استمرت مئات السنين بحجة أنها عين الحاكم ويده ولسانه، وأن صاحبها يمثل صلة جيدة بين السلطة والناس.

وعندما أراد الدكتور الجميعى أن يستكشف الظروف التاريخية لظهور نظام شيوخ الحارات، فإنه عاد به إلى نشأة مدينة القاهرة فى عصر المعز لدين الله الفاطمى عام (٣٥٨هـ - ٩٦٩م). رغم قوله أن الحارات قد وجدت فى الفسطاط قبل إنشاء القاهرة. إلا أن فكرة وجود المشايخ أو الأشخاص المشرفين عليها لم يظهر إلا بعد إنشاء القاهرة واستيطان العامة لها. وهو قول يحتاج إلى نظر.

والحق إن نظام مشايخ الحارات لم يبدأ مع القاهرة. ولكنه بدأ مع نشأة الفسطاط، وكان هناك من يقوم مقام مشايخ الحارات، وهم «العرفاء» ومفرده (عريف) وهو الرجل الذى يعرف كل شىء عن سكان حارته. وقد أشار المقريزى - وهو من مؤرخى القرن الخامس عشر الميلادى - إلى أن الخطط التى كانت بمدينة الفسطاط، هى بمنزلة الحارات التى هى اليوم بالقاهرة فقيل لتلك فى مصر (الفسطاط) «خطة»، وقيل لها فى القاهرة «حارة».

ونحن نعرف التصميم المعمارى للعاصمة الفسطاط، وكيف أن عمرو بن العاص توخى أن يرسمها على أساس الخطط، فكان لكل قبيلة خطة أى حارة تضم أبناء القبيلة، وكان لكل قبيلة (عريف) يسجل أسماء سكان كل خطة رجالا ونساء وأطفالا،وعليه أن يثبت أسماء

المواليد، ويحذف أسماء الوفيات بل كان يسجل أسماء الضيوف الذين يهبطون على خطته، ثم كان عليه أن يذهب بهذا السجل إلى الديوان ليتقرر هناك قيمة العطاء - أى المرتبات - التى تمنح لأفراد كل خطة وفقا للبيان الذى يقدمه العريف. فكان نظام العرفاء مرتبط بعمل الديوان الذى أخذت به الحكومة الإسلامية بعد الفتح. ونفهم من هذا أن مهمة العريف هى نفس مهمة شيخ الحارة مع اختلاف فى التسمية، ففى الفسطاط كان يسمى عريفا.. وفى القاهرة صار يسمى شيخ حارة بعد أن صارت الحارات هى أساس تقسيم القاهرة.

ومنذ الفتح العربى كان هناك فى القرى المصرية تنظيم مماثل وإن كان يطلق على صاحبه شيخ القرية.. وكانت مهمته رعاية شئون أهلها، وتدبير مصالحهم، وتقرير حجم الخراج - ضريبة الأرض - التى يجب أن تفرض على زمام قريته وفقا لزيادة النيل أو نقصانه، وكان مشايخ القرى يجتمعون فى شكل مؤتمر، ويتفقون على قرارات يرفعونها إلى المستويات الأعلى حتى تصل إلى الوالى، وعندئذ تصدر قرارات تقديرية بالضرائب حسب شهادة مشايخ القرى.. ومعنى ذلك أن مصر الإسلامية عرفت نظام مشايخ الحارات فى الفسطاط والإسكندرية والجيزة والمدن الكبرى، كما عرفت نظام مشايخ القرى فى الريف.

إباحة السكن فى القاهرة

ونعود إلى دراسة الدكتور الجميعى.. إذ يقول إن أمور الدولة الفاطمية تعثرت واندثر بنيانها، وجاءت الدولة الأيوبية فسمح للعامة

بالإقامة فى القاهرة بصفة دائمة، وإنشاءِ مناطق سكناهم بها، و من هنا نشأت الحارات، وكانت عند بنائها مقرا لسكنى الخليفة الفاطمى وحرمه وجنده وخواصه، ومعقل قتال يتحصن بها ويلتجيء إليها، فلما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وسكن القاهرة: أباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن وكل من وصلت قدرته إلى عمارة أن يعمر ما شاء فى القاهرة، فمن حينئذ سكنها أصحاب السلطان إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية باستيلاء الناصر صلاح الدين الأيوبى عليها فنقلها عما كانت عليه من الصيانة، وجعلها مبتذلة لسكن العامة والجمهور، وحط من مقدار قصور الخلافة، فتهدم بعضها فصارت القاهرة خططا وحارات وشوارع ومسالك وأزقة، كما يقول المقريزى فى خططه.. وفى أعقاب ذلك تكتلت كل فئة من فئات العامة التى ارتبطت مصالحها ببعض وأقامت مساكن خاصة بها دون تخطيط أو تنظيم سوى أن يجعل الشخص مسكنه فى مأمن من اللصوص، فيحتمى بمسكنه فى مساكن الجيران الأخرى، كما أخذ أصحاب الطوائف والحرف يفدون إلى القاهرة للسكنى والاستيطان، واستقلت كل طائفة متجانسة نسبيا فى مكان محدد، أطلق عليه «حارة»، فوجدت حارات: المغربلين، والنحاسين والصنادقية، والصاغة وغيرها، وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك حارات خاصة تسكنها الطبقات الراقية، وبعض الأمراء وأتباعهم يقيمون حولها أسوارا ويعينون عليها حراسا خصوصيين.

فى القاهرة العثمانية:

أما نظام شيوخ الحارات فى القاهرة العثمانية فقد تطور تطورا كبيرا وكان موضع اهتمام العالم الفرنسى «أندريه ريمون» وشغل قسما هاما من كتابه (التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية) ترجمة زهير الشايب، وكان المؤلف قد نشر فصول هذا الكتاب فيما بين عامى ١٩٦٢ و١٩٦٩ عن طريق المعهد الفرنسى بالقاهرة.. وهو يرى أن تاريخ القاهرة هو تاريخ مصر كلها .

وفى رأيه أن الخلية الأساسية للحياة المدنية فى القاهرة كانت تتمثل فى الحارات بأكثر مما تتمثل فى الطوائف التى ظلت اهتماماتها مهنية على وجه الخصوص وكانت منطقة نشاطها لا تغطى الإجزاء من حياة المدينة.. وقال أن وثائق أرشيف الحملة الفرنسية كانت تتضمن قائمة مشايخ الحارات وعددهم ٥٨ شيخا.. وفى العادة كان لكل حارة باب (بوابة) يوجد عند مدخل الشارع المؤدى إليها، وقد ظل بعضها باقيا حتى الآن مثل بوابة حارة المبيضة التى أنشئت عام ١٦٧٣ .. وهى عبارة عن قوس من البناء يعلوه صف من الفتحات ويغلقه مصراع (ضرفة) كبير من الخشب المقوى بعوارض حديدية، وكان يحرس هذه البوابات (بوابون - خفراء) كان يصفهم الرحالة الأوروبيون - بسبب تخشبهم الأسطورى - بأنهم يبدون وكأنهم مقيدو القدمين كأى حصان جامح بواسطة قيد، مفتاحه بيد سكان الحارة حتى يكونوا مطمئنين من حراسته لحارتهم.

وكانت هذه البوابات تغلق أثناء الليل بالضبة – وهى قفل خشبى - لتأكيد الأمن الليلى ومنع تجوال اللصوص الطارئين، وعلى أولئك الذين يرغبون فى التنقل ليلا أن يحملوا الفوانيس ولا تفتح البوابات إلا لأبناء الحارة نفسها وللزوار المعروفين مقابل جعل متواضع للبواب.. وفى أثناء حركات التمرد والعصيان كانت البوابات تغلق لضمان حماية سكان الحارات من الاعتداء، وعند «الجبرتى» نرى تلك الجملة ذات المغزى تتردد فى أوقات الأزمات: «وأغلق الناس الدكاكين والدروب». وإذا كان الفرنسيون قد عملوا أثناء احتلالهم لمصر على إزالة أبواب الحارات، إلا أن وسائل الدفاع الداخلى كانت تشكل خطرا شديدا عليهم.

وحول سلطات مشايخ الحارات يقول أندريه ريمون إن الحارات كانت تخضع لسلطة هؤلاء المشايخ ويعاون كل منهم نقيب أو أكثر، وليس لدينا من المعلومات ما يجعلنا نعرف على وجه الدقة طبيعة الدور الذى كان يقوم به مشايخ الحارات، لقد دعوا - أثناء الاحتلال الفرنسى - إلى المساهمة الفعالة فى حفظ النظام قبل سفر بونابرت إلى سوريا، إلى جانب الالتزامات التى نفذها المشايخ مثل إحصاء النفوس، ومنذ ذلك الحين أصبحوا بمثابة ضامنين للأهالى من أبناء أحيائهم. ومسئولين عن أى اضطراب قد ينشأ فيها، وعندما فكر الفرنسيون فى عمل إحصاء للمولودين والمتوفين أوكلوا هذه المهمة إلى مشايخ الحارات تعاونهم فى ذلك القابلات واللحادين، أما قبل الحملة فيمكن افتراض أن دورهم كان يماثل - بلا شك – التزامات رجل الشرطة من حفظ للنظام ومراقبة

العناصر المشبوهة، وبحكم اتصالهم المباشر بالأهالى فقد كانوا فى موضع يسمح لهم بأن يلعبوا دورا إداريا فيدعون إلى الاشتراك فى تصفية تركات بعض الناس مقابل الحصول على عوايد (خدمة) تعادل ٢٪ أو ٣٪ من مجموع التركة، وعموما فإن مشايخ الحارات كانوا واسطة اتصال بين السلطة والرعايا، وهو نفس الدور الذى كان يلعبه شيوخ الطوائف الحرفية، ويجب أن ننظر إليهم كأعيان وممثلين لأحيائهم أكثر من اعتبارهم مجرد أناس قائمين بدور إدارى.. وإن كان لم يرد ذكر لشيخ مشايخ الحارات إلا فى عام ١٨٠٣م فى مؤلفات الجبرتى.

شروط المشيخة:

وقد ظهر بين سكان الحارات بعض الأشخاص من ذوى الكفايات والقدرات الشخصية والاجتماعية، فرضوا أنفسهم على السكان، وهيمنوا بشخصيتهم على زمام الأمور فتدخلوا فى المنازعات، وعملوا على إيجاد الحلول المناسبة لها مما جعلهم محط أنظار الطائفة التى ينتمون إليها، فأنابتهم عنها فى تصريف شئونها والمحافظة على النظام، وطرد من يعكر صفو الجيران.. ولما كان لقب «شيخ» هو المتبع فى ذلك الوقت للتعبير عن احترام الناس لكبيرهم، خاصة أنه كان يطلق على رؤساء طوائفهم وحرفهم، فقد أطلق هذا اللقب على مشايخ الحارات.. ونتيجة لحاجة الحكومة إلى رجال يعاونونها فى اتصالاتها بأهل الحارات، ويكونون همزة وصل بينها وبينهم، فقد استعانت بمشايخ الحارات بطريقة تلقائية، ودون سن قانونى أو تشريع لهم، أو تحديد وظيفة شيخ

الحارة، ومن أى جهة يستمد سلطته، ونتيجة لذلك لم تتعرض مصادر القرن التاسع عشر إلى ظهور نظام مشايخ الحارات وأعمالهم، كما هو متبع بشأن عمد ومشايخ القرى.. أما أول إشارة إلى هذا النظام فوردت عند «ابراهيم المويلحى» فى كتابه (حديث عيسى بن هشام) والذى أرخ فيه لفترة مملوكية فأشار إلى شيخ الحارة وبعض اختصاصاته أثناء مشادة حدثت بين أحد الباشوات وأحد المكارين الذين يقومون بتأجير الحمير للركوب، عندما رفض الباشا دفع أجرة الركوب، فذهبا إلى قسم الشرطة (التمن) وطلب المحقق من أحدهما ضامنا يضمنه، ولما تقدم أحد الأهالى لضمانه، لم يقبل طلبه إلا بتصديق شيخ الحارة.. فرفض هذا التصديق على الضمان قبل أن يحصل على عشرة قروش.

ومع أن الفرنسيين حددوا لشيخ التمن مائة قرش مرتبا شهريا، فإنهم تركوا شيخ الحارة بلا مرتب، وتركوه يتكسب من النقود التى يأخذها فى شكل «الحلوان» من أهل شياخته، لأن العادة جرت بأن من يؤجر بيتا فى حارة يكون ذلك بمعرفة شيخ الحارة، وعليه أن يدفع أجرة شهر إلى شيخ الحارة..

عقوبات لشيخ الحارة:

ويبدو أن مهنة شيخ الحارة كانت وراثية، فلم تكن تتطلب من صاحبها أى مهارة خاصة سوى معرفة أهل الحارة، وأن تتوافر فيه صفات التحايل والدهاء واللباقة مع رجال الإدارة والشرطة، وفى عهد الخديو توفيق تبلور نظام مشايخ الحارات حيث أكد مجلس النظار على دورهم وأن اختيارهم يجب أن يتم بمعرفة المحافظة أولا بشرط أن يكون

موافقا للقواعد والأصول المقررة، وألا يعتمد التعيين إلا بعد التصديق عليه من وزارة الداخلية وتضمن التنظيم عقوبة شيخ الحارة بعقوبات تصل إلى الصلب والسجن المؤبد والإعدام، خاصة إذا أغمضوا عيونهم عن الأشخاص الفارين من التجنيد.. وأن يكون الصلب على مرأى من الناس حتى يكونوا عبرة لغيرهم، وكان مشايخ الحارات يكلفون بأعمال من قبل الشرطة بعضها يتعلق بالضمانات الشخصية، وبعضها بتوزيع الفردة وقيد المواليد والوفيات ومراقبة تنفيذ الأهالى للتعليمات الحكومية وتحصيل الضرائب والمشاركة فى تعداد السكان وجمع الناس للاشتغال بالأعمال العامة وضبط الهاربين من السجون، ومراقبة الخارج عنهم وعمل التحريات عن الغرباء.

وإذا كان مشايخ الحارات قد لعبوا دورا هاما فى المدن المصرية، إلا إن هذا الدور أخذ فى الانقراض بدءا من عام ١٩٦٠ بعد أن أخذت الدولة بنظام البطاقات الشخصية.. وأصبحنا نقرأ خبر الإفراج عن المتهم بضمان بطاقته الشخصية، واختفت عبارة بضمان شيخ الحارة.. وعندما سألت مأمور قسمنا – مصر الجديدة – العميد محمود حزين عن بدائل نظام مشايخ الحارات، قال إن فى كل قسم موظفا يقوم بتلك المهمة واسم وظيفته «مندوب شياخة» وهو يقوم بمعظم المهام التى كان يقوم بها شيخ الحارة من تحريات وجمع معلومات وتبليغ قرارات إلى الأهالى.. لقد حل مندوب الشياخة محل شيخ الحارة. وسبحان من له الدوام..

أفـراح الأنجـال

من الأقوال المأثورة عن الخديو توفيق فى وصف أبيه «إسماعيل»: لن يأتى الزمن بمثله فى أبهة الملك.. وفخفخته السنية.. وهو وصف صحيح يمثل شخصية إسماعيل أصدق تمثيل.. ويندر أن تجد عاهلا فى الشرق والغرب يضاهيه فى حب الفخفخة والصهللة والزأططة.. وكل ما تسمعه من أوصاف خيالية عن ألف ليلة وليلة، تتواضع إلى جانب ليالى إسماعيل وحفلاته الصاخبة وسهراته المخملية.. وكلها أعمال سجلها الواقع ولم يجنح بها خيال المؤلفين.. كان إسماعيل يلتمس- بل يفتعل - المناسبات السعيدة لاقامة الحفلات، ودعوة خلصائه من المصريين والأجانب لمشاركته فى نزواته ، ويصلون الليل بالنهار وهم فى دوامة البهجة والسعادة، مأخوذين بأنغام الموسيقى الراقصة، وألوان الطعام والشراب المستورد من أفخر المحلات الباريسية.

وإذا كانت احتفالات افتتاح قناة السويس قد بهرت ملوك أوروبا وأميراتها، فإن أفراح الأنجال فاقت الأولى فى بذخها وإسرافها وتواصلها أربعين يوما بلياليها، ولا ننسى أن أفراح الأنجال أقيمت بعد أربع

سنوات من حفلة القناة، وفى خلال هذه السنوات كان إسماعيل قد انتهى من بناء سلسلة من القصور التى شهدت وقائع هذه المناسبة التاريخية، فقد اعتزم إسماعيل أن يجعل من أفراح أنجاله حدثا تاريخيا تجرى بذكره الركبان الذين سبق أن تحدثوا عن زفاف «بوران» بنت الوزير الحسن بن سهل إلى الخليفة المأمون.. وزفاف الأميرة المصرية «قطر الندى» إلى الخليفة المعتضد.. ولا يزال المؤرخون يتندرون بما جرى فى زفاف بوران.. ومنها «التمبولا» التى كانت توزع على المدعوين فى شكل كرات ذهبية تحتوى كل منها على صك يهدى لحامله ما شاء له حظه، قد يكون ضيعة عامرة.. أو بستانا مزهرا أو قصرا بديعا..

أما فرح قطر الندى، فيكفى أن تعرف أن أباها الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون، أصدر تكليفا إلى كل صناع مصر المهرة بإعداد «الشوار» الذى صحبها إلى قصرها على ضفاف دجلة، كما بنى لها سلسلة من القصور لتقيم فيها أثناء سفرها من مصر إلى العراق حتى لا تشعر بوعثاء الطريق(!!)

الأنجال الأربعة:

أما أفراح أنجال إسماعيل فقد فاقت كل هذا.. والأنجال الأربعة كانوا ثلاثة ذكور وفتاة.. أولهم ولى العهد «توفيق» الذى خلف أباه على العرش.. وعروسه الأميرة «أمينة» بنت الأمير إلهامى بن عباس الأول أول وريث لجده محمد على، والثانى: حسين كامل الذى صار سلطانا على مصر بقرار من السفارة البريطانية بعد عزل عباس حلمى الثانى،

وعروسه «عين الحياة» بنت عمه الأمير أحمد رفعت الذى غرق فى حادث القطار عند كفر الزيات، وجاء موته المفاجىء ليفسح الطريق أمام إسماعيل لحكم مصر، والثالث: الأمير حسن.. واختار له أبوه عروسه الأميرة «خديجة» بنت الأمير محمد على (الصغير) تمييزا له عن أبيه مؤسس الأسرة العلوية، وقد اختارها إسماعيل «وفاء لوعد قطعه لها، ولهذا الوعد قصة طريفة، بدأت عندما كان الخديو يتفقد الدراسة فى مدرسة البلاط التى أنشأها لتعليم الأميرات، ولما وجد التليمذة خديجة أخذ يحثها على الاجتهاد فى تحصيل العلم وحفظ القرآن الكريم، ووعدها بأن يزوجها من أحد أبنائه إذا تفوقت فى حفظ القرآن، وبعد سنوات ذهب الخديو لزيارة المدرسة، وسأل خديجة عما حفظته من القرآن الكريم، فأجابت على الفور: «واذكر فى الكتاب إسماعيل أنه كان صادق الوعد» . وانبسطت أسارير الخديو لذكائها وحسن تصرفها..«وضحك قائلا: أجل.. أجل.. لن أنسى وعدى.. واختارها زوجة لابنه حسن..

أما الأبنة الوحيدة التى احتفل الخديو بزواجها فهى الأميرة «فاطمة» وزوجها من الأمير طوسون ابن عمه وسلفه الوالى سعيد باشا، وفاطمة هى التى سجلت اسمها فى التاريخ بسبب التبرعات القيمة التى قدمتها لإنشاء الجامعة المصرية.

مؤلفات عن الأفراح

ووقائع أفراح الأنجال رواها مؤرخ عصر إسماعيل: إلياس الأيوبى نقلا عن الكتاب الأوروبين الذين شاهدوا الأفراح، ووضعوا فيها

المؤلفات، منها كتاب (تذكارات عن أميرة شابة) بقلم مربيتها الآنسة تشنلز، وكتاب (باريس فى القاهرة) لكارل دى بريير، وكتاب (حياة البلاط) للمؤرخ الانجليزى بتلر صاحب كتاب (فتح العرب لمصر) والذى اختاره الخديو توفيق لتعليم ولديه: عباس حلمى ومحمد على، وعاش سنوات إقامته فى مصر بين سجلات ووثائق قصر عابدين، ومنها اتخذ مادة كتبه، أما تفاصيل الأفراح التى أقيمت للحريم، فقد انفرد بها (إدون دون ليون) ولما كان من المحظور اقتراب الرجال من قصور الحريم، فقد استقى المؤلف معلوماته من زوجته التى حضرت هذه الأفراح، وضمنها كتابه (مصر الخديو). وقد أقيمت أفراح الحريم فى القصر العالى بجاردن سيتى، مقر إقامة الوالدة باشا (الأميرة خوشيار) أم الخديو إسماعيل، والسيدة الأولى فى البلاط، وصاحبة الكلمة النافذة على زوجات إسماعيل ومحظياته.

القاهرة شعلة نور

وبدأت الاحتفالات يوم ١٥ يناير ١٨٧٣ واستمرت أربعين يوما بمعدل عشرة أيام لكل واحد من الأنجال، وزينت الشوارع الممتدة من القصر العالى إلى قصر الجزيرة (فندق ماريوت حاليا) إلى سراى القبة مقر ولى العهد، بالنجف والفوانيس المختلفة الألوان، وفى نهاياتها أقيمت أقواس النصر تعلوها الشموع، فسطعت الأضواء حتى جعلت القاهرة شعلة من النور، وفى أهم الميادين أقيمت المسارح للفرق الموسيقية والغنائية وأهمها فرقة عبده الحامولى ويلتف حولها الناس ليستمعوا ويستمتعوا..وشارك فى هذه العروض العامة فرق الأراجوز

والبلهلوانات والسحرة، بينما كانت الصواريخ تنطلق فى سماء القاهرة طوال الليل..

وفى اليوم الخامس عشر بدأ خروج الهدايا المقدمة من الوالدة باشا وزوجات الخديو إلى العرائس من القصر العالى، وشوارهن، وبدأ موكب شوار عروس ولى العهد فى حراسة صفوف الفرسان فى زى عربى، وآلاى من المشاة فى ملابس بيضاء ناصعة. وكانت الهدايا موضوعة فى أسبتة مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس يغطيها شاشا فاخر، يمسك بأطرافه أربعة عساكر فى كل عربة، ويتبعهم ضابط فى أيديهم السيوف، وكانت الهدايا عبارة عن مجوهرات وقلائد من الماس من نوع البرلنتى.. ومناطق من الذهب الخالص، وأقمشة مطرزة باللؤلؤ وزمرد فى حجم البيض، وملابس مطرزة عليها رقم الأميرة باللآلىء والأحجار الكريمة، وآنية متنوعة من الفضة الصب، وكان من بين الهدايا المقدمة من الخديو لولى عهده سرير من الفضة الصب الخالصة محلاة بماء الذهب الأبريز وعواميده الضخمة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز وهو شبيه بالسرير الذى أهداه الخديو إسماعيل إلى الأمبراطورة «أوجينى» أثناء إقامتها بمصر، واجتاز الموكب شوارع العاصمة بين سياج حى من العساكر الشاكى السلاح، ولم يختلف شوار الأميرات عين الحياة وخديجة وفاطمة عن شوار الأميرة أمينة..

وفى اليوم السادس عشر، أقيم سباق للخيل فى العباسية، وكان الجوكية السود يرتدون لباسا من الحرير الأحمر، وبجواره مقصف

احتوى على مأكولات ومشروبات تفوق كل ماسبق أن قدمته المقاصف الخديوية، وفى اليوم التالى أقيم رقص فخم فى قصر الجزيرة، دعى إليه حوالى خمسة آلاف من الأجانب والأعيان، ماجت بهم القاعات والحدائق، وفى اليوم التاسع عشر بدأت أعياد القصر العالى، فنصبت حول الساحة الممتدة أمامه الصواوين وعليها أسماء أصحابها، وفرشت بالسجاجيد العجمية الفاخرة، وأقبل أرباب اليازرجة والبهلوانات يقدمون ألعابهم، ومن بينهم بهلوان كان يصعد على الحبل حاملا خروفا فيذبحه ثم يفرق لحومه، وأقيمت صواوين خاصة بالقناصل وغيرها للتجار، وأخرى للعلماء، وسرادق لمحافظ العاصمة، علاوة على الصواوين التى أقامها الأعيان على نفقتهم، وفى داخل القصر الحالى كانت تجرى حفلات الرقص. ومن أشهر الراقصات صفية وعائشة الطويلة، وكنت تسمع (ألمظ) وهى تغنى فتأخذ بمجامع القلوب، وترى أشهر البهلوانات الانجليز يخلبون الألباب.،.

من سراى الحلمية إلى القبة

وفى ظهر الثالث والعشرين خرجت العروس الأميرة أمينة بصحبة سمو الوالدة باشا من سراى الحلمية، وتوجهت باحتفال عظيم إلى قصر القبة، يتقدمها ويحف بها موكب مهيب من ثلاثة آلايات من الخيالة: الأول آلاى ذوى الرماح، وراياتهم المرفرفة مغطاة بخوذات الدراجون، والثانى آلاى ذوى الدروع، والشمس تسطع على دروعهم، وتتدلى من خوذاتهم شاش ملون يداعبه زالنسيم، والثالث آلاى ذوى الزرد وسلاحهم كسلاح الترك أيام الصليبين، وهم فى كسوتهم الفولاذية

كأنهم تماثيل من الحديد، وسارت وراءهم العربات، وأهمها عربة التشريفة يجرها ثمانية خيول ذات لون واحد، ويقودها حوذيون بملابس حمراء تخطها شرائب القصب والفضة، وتتدلى من رؤوسهم شعور مستعارة، ويسير بجانبها خدم أيديهم على أبواب العربة، وعلى رؤوس الجميع برانيط واسعة من ذوات القرون، وسار وراء العربات: الأغوات فى لباس أفرنجى وبنطلونات ملونة، يمتطون صهوات الخيول، وكانت العين ترى فى وسطهم شيخا وقوراً مهيبا ويتهامس الناس بأنه الأمير المملوكى «أمين بك» صاحب الوثبة المشهورة من فوق سور القلعة أثناء مذبحة المماليك..

وعلى هذا النمط خرجت بقية العرائس قصورهن..

زفاف الأميرة فاطمة

أما حفل زفاف الأميرة فاطمة فقد وصفه «إدون دى ليون» نقلا عن زوجته على النحو التالى:

اجتازت المدعوات بستانا فسيحا مضاء بملايين المصابيح المتعددة الألوان وعند مدخل سراى القصر العالى كان الأغوات فى انتظارهن لتوصيلهن إلى قاعة واسعة ذات رياش فاخر، فوجدن هناك جوارى الحريم، ونصفهن مرتديات لباس رجال من أفخر الملابس الشرقية، وبعضهن يضعن على رؤوسهن طرابيش حمراء، وشاهرات فى أيديهن سيوفا لامعة، وبعضهن لابسات لبسا عسكريا ساطعا، وواقفات وقفة عسكرية، وأدخلن المدعوات إلى حجرة كانت «العوالم» ترقص فيها بالصاجات، بينما كانت السيدات الموسيقيات يعزفن ألحانا شجية، وفى

غرف كان الجوارى يرقصن رقصا غريبا وفى أيديهن عصى وسيوف. ثم اجتازت الضيفات عدة صالات فيها موائد لأصناف من المشروبات والحلوى على الطريقتين الشرقية والغربية. وترأست أميرات الأسرة المالكة المائدة المخصصة لزوجات الخديو وقرينات القناصل..

ودخلت الضيفات إلى قاعة فخيمة لتحية الوالدة باشا، فكن يسرن وراء الجوارى المسلحات، وكانت سيدة أوروبية تقدم كل ضيفة باسمها إلى الوالدة باشا ثم تجلسها فى المقعد المعد لها، ولما انتظم العقد بجميع المدعوات، دخلت الراقصات والمغنيات، والضيفات يقدمن إليهن «النقوط» - بعد استئذان الوالدة باشا - فيتقبلن النقوط بالشكر على طريقة «الشويش»..

بعد ذلك بدأت جلوة العروس: فأمسك كل من أغوات السيدات المدعوات شمعدانا، واصطفوا من أول السلالم حتى القاعة العظمى، وفرشت الأرض بنسيج من الذهب لتخطى عليه العروس، وذهبت الراقصات ليصحبن العروس فى زفتها، وما هى إلا برهة حتى تجلت العروس فاطمة هانم تستند على ذراع أمها، تحيط بها الأميرات. فتقدمت خطوات بطيئة، ثم تتوقف كأنها تقول للناظرات: ها أنا فأعجبوا بى! واجتازت وعيناها مطرقتان، صفى الأغوات على النسيج الحريرى بين أغانى المغنيات وأداء الراقصات، وبينما هى تتقدم كأنها آلهة من عصور الأساطير، صعدت فتيات كالبدور على كراسى وراءهن وهن ينثرن «البدرة» من القطع الذهبية ضربت خصيصا لهذه المناسبة:

وفى صدر القاعة أقيمت ثلاثة عروش مكسوة بالحرير الأبيض، فجلست الوالدة باشا على عرش اليمين، وأم العروس على عرش اليسار وجلست العروس على عرش الوسط وعلى رأسها تاج من الماس ثمنه أربعون ألف جنيه، وكان لباسها من الحرير الأبيض الفرنساوى كله مرصع بأنفس أنواع الماس واللؤلؤ، وله ذيل طوله خمسة عشرا مترا، رفعته الجوارى وراءها وهن راكعات، فتقدمت المدعوات لتهنئتها، وبعد أن جلست معهن برهة، عادت إلى حجرتها، واستمر الفرح حتى مطلع الفجر..

فى أفراح الأنجال عاشت القاهرة أربعين يوما وليلة فى غمرة البهجة والسرور وحقق إسماعيل ولعه الشديد بالأبهة والإسراف، دون تبصر بما سوف تجره نزواته من خراب على خزينة البلاد.. وبعد ست سنوات من هذه الأفراح الأسطورية استيقظ إسماعيل من غفوته على دقات عنيفة تهز عرشه، وتخلعه عن ملكه، وتدفع به إلى هاوية الفقر والفاقة، ولم يكن الحلم الذى عاش فيه إسماعيل سوى كابوس ثقيل أفاق بعده إسماعيل ولكن.. بعد أن فات الأوان وكانت نهاية كل مسرف متلاف لا يقدر العواقب، ولا يرعى الله فى أموال الشعب..

جلاد دنشواى

كان إبراهيم بك الهلباوى من صفوة المثقفين المصريين الذين خرجوا من عباءة الأفغانى، وتشربوا فكره الثورى قولا وفعلا، وجرفته وهو فى شرخ الشباب أحداث الثورة العرابية، وبعدها احترف مهنة المحاماة قبل أن تقام مدارس الحقوق، واكتسب شهرة كبيرة بسبب فصاحته اللسانية، وبلاغته الخطابية، حتى يقول عنه «العقاد» إنه كان أشهر المحامين بين الفلاحين على الإطلاق، وكان من آيات شهرته أنها دخلت فى «النكتة المصرية» فكان الذين يساومون القصابين فى شراء لسان الذبيحة يقولون إذا اشتط عليهم القصاب فى الثمن: «والله.. ولا لسان الهلباوى».

غير أن هناك مصدرا آخر لشهرة الهلباوى، وإن كان لا يمت بسبب إلى مهنة المحاماة، إلا أنه لطخ اسم الهلباوى فى سجل الحركة الوطنية، وجلب عليه سخط المصريين ونقمتهم عليه، وأعنى به قبوله القيام بدور المدعى العام فى قضية دنشواى، ووقوفه أمام المحكمة المخصوصة ليطالب بإعدام الفلاحين الذين هبوا للدفاع عن غلالهم

التى أحرقها جنود الاحتلال. صحيح أن عناصر مصرية اشتركت فى تشكيل هذه المحكمة الاستثنائية، إذ كان بطرس غالى باشا رئيسا لها، وكان فتحى باشا زغلول عضوا فيها. إلا أن هذه المشاركة كانت بحكم الوظيفة المنصوص عليها فى قانون تشكيل المحكمة والذى يقضى بأن يتولى رئاستها وزير العدل، وكان بطرس غالى وزيرا للعدل بالوكالة إلى جانب كونه وزيرا للخارجية، أما فتحى زغلول فكان رئيس محكمة مصر الابتدائية ويمثل العنصر القضائى المصرى إلى جانب ثلاثة عناصر أجنبية، وكان الهدف من إنشاء هذه المحكمة المخصوصة فى عام ١٨٩٥ النظر فيما يقع من المصريين من إعتداءات على جنود الاحتلال حتى لا تعرض أمام القضاء الوطنى المصرى.

أما إبراهيم الهلباوى - المحامى الشهير - فلم يكن له علاقة بالنيابة العامة أو بأى منصب قضائى يخول له المشاركة فى تشكيل المحكمة المخصوصة، ولكن الحكومة القائمة وقتئذ - حكومة مصطفى فهمى باشا - وهى تريد أن تجعل من المحاكمة فرصة لقمع المصريين والتنكيل بهم، فكرت فى إسناد مهمة النائب العام إلى عنصر مصرى - وليس إنجليزيا - حتى تكون المطالبة بإعدام الفلاحين المصريين على لسان مصرى مشهود له بالكفاءة والبلاغة وحسن البيان. وما إن عرضت الحكومة على الهلباوى القيام بهذا الدور المخزى حتى قبله طواعية. وشهدت وقائع المحاكمة المحامى القدير الذى نشأ فى أحضان الحركة الوطنية، وهو يخلع رداء المحامى ويلبس رداء الجلاد، ويستفرغ جهده فى إقامة الحجة على بنى وطنه، ويطالب بإعدامهم وجلدهم(!!).

ودفع الهلباوى ثمن هذه السقطة سنوات طويلة، ولم يغفر له المصريون انحيازه السافر إلى صف الاحتلال، فكان الشبان يتربصون به فى أى مكان يوجد فيه ليصبوا عليه سخطهم ونقمتهم. ويروى العقاد فى كتابه (رجال عرفتهم) ما حدث فى دار «الجريدة» فى مايو ١٩٠٨ حين احتشد الناس لسماع خطاب يلقيه أحمد لطفى السيد باشا عن موقف حزب الأمة من السياسة المصرية.. «واكتظت دار الجريدة بمئات من الشبان والطلبة، ونجح الأستاد الجليل فى اجتذاب الأسماع إليه، ولكننى سمعت إلى جانبى همهمة متواصلة فى أثناء إلقاء الخطاب، ورأيت خمسة أو ستة من الشبان يخرجون ويعودون ومعهم قراطيس ملأى بالطماطم والبيض، ومع اثنين منهم حمائم يخفيانها تحت سترتيهما. وهما متحفزان، وكان المقصود بهذه الحركة كلها إبراهيم الهلباوى بك، فما هو إلا أن فرغ الأستاذ لطفى السيد من خطابه حتى انطلقت فى جو المكان تلك الحمائم (التى ترمز إلى حمام دنشواى) وانطلق معها هتاف كالرعد بسقوط «جلاد دنشواى».

ثم يستطرد الأستاذ عباس العقاد فى وصف الواقعة فيقول: ويستطيع القارىء إذن أن يتخيل مبلغ السخط الذى أثارته فى نفوسنا رؤية الهلباوى أمامنا وجهاً لوجه فى دار «الجريدة».. لقد كان اغتباطى شديدا بما أصابه من الأذى فى ذلك اليوم، ولكنى أقول إنصافا له، إننا رأينا فى الرجل شجاعة لم نرها من المقصودين بالهتافات العدائية ذلك المساء، فقد آوى بعضهم إلى حجرات الدار حتى أطمأن إلى انصراف الجمهور الغاضب، وأبى الهلباوى إلا أن يقتحم الجمع خارجا من الدار إبان الهياج، ولم يحفل بما تعرض له فى طريقه من اللكم والإيذاء.

عناد وجلد:

لقد ترك حادث دنشواى، وما صاحبه من أعمال بربرية، جرحا غائرا فى نفوس المصريين جميعا، ومن هنا كانت نقمتهم على الهلباوى وعلى الدور الذى قام به فى هذه المأساة، والذى استحق من أجله وصف «جلاد دنشواى» ولكن شخصية الهلباوى، وما كانت تتميز به من عناد وجلد، لم تستسلم لهذا التيار المعادى، ولم يجنح الهلباوى إلى العزلة أو الأنطواء على الذات كما كان متوقعا من إنسان يتعرض لهذا الهجوم الشعبى الضارى، وإنما ظل الهلباوى محافظا على موقعه فى الحركة الوطنية، مشاركا فى المحادثات التى دارت لتأليف الوفد المصرى عام ١٩١٩ يوم طرحت فكرة إيفاد وفد إلى باريس لعرض مطالب مصر على مؤتمر الصلح، كما ظل محافظا على موقعه فى ساحات القضاء محاميا جهير الصوت، قوى الحجة، وفى تفسير ذلك يقول الدكتور عبدالعظيم رمضان فى تقديمه لمذكرات الهلباوى: من المحقق أن إبراهيم الهلباوى هو وطنى مصرى كفر عن سيئة دنشواى بمئات من الحسنات، بل من الغريب حقا أن الوطنيين المصريين تعاملوا معه على هذا الأساس، وليس على أساس موقفه فى دنشواى، فلم يستبعدوه من الصف الوطنى، ويعتبروه فى صف الاحتلال، وإنما تعاملوا معه بصفته الوطنية، فطلبوا منه الدفاع عنهم فى قضية التظاهر ضد قانون المطبوعات المكبل لحرية الصحافة، والتى قبض فيها على كثير من الطلبة بقيادة أحمد حلمى صاحب جريدة «القطر المصرى» وفى ذلك تقدير خفى لدوافع موقفه فى قضية دنشواى بقدر ما هو تقدير صريح لبراعته المهنية فى المحاماة، كذلك حرص إبراهيم الوردانى،

الذى قتل بطرس غالى باشا، على الاستعانة بالهلباوى فى الدفاع عنه، رغم سابق معرفته بمرافعته ضد الفلاحين المصريين فى قضية دنشواى.. وعلى كل حال فإن حياة إبراهيم الهلباوى ليست فقط محاكمة دنشواى، وإنما هى سلسلة متواصلة الحلقات من النضال الوطنى.

تبرير ودفاع:

لقد كتب الهلباوى مذكراته مستخدما أسلوب التبرير، والدفاع عن جميع مواقفه بما فيها موقفه فى قضية دنشواى، وهذا حقه الذى لا ينازعه فيه أحد، وإذا كان الرأى العام قد أصدر حكما على الرجل، فمن حقه أن يدافع عن نفسه، ومن الواجب علينا أن نستمع إلى هذا الدفاع وندرسه ونمحصه إذ ليس من شأن التاريخ المحايد أن يأخذ مصادره من زاوية واحدة، وإنما عليه أن يستمع إلى جميع الروايات والأسانيد حتى يكون حكمه أقرب إلى العدل والموضوعية والإنصاف. ولقد أصاب مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر التابع للهيئة العامة للكتاب حين نشر نص مذكرات الهلباوى فى كتاب من ٤٥٠ صفحة من القطع الكبير دون حذف بعض التفاصيل أو الاستطرادات التى يراها بعض الباحثين غير مفيدة، ولقد انتصرت وجهة النظر التى رأت عدم التدخل فى أى جزء من المذكرات حتى يستفيد منها القارئ المثقف والباحث المتخصص، وإذا كانت مذكرات الهلباوى قد تناولت تفاصيل حياته التى امتدت من عام ١٨٥٨ إلى عام ١٩٤٠ فإن الذى يعنينا منها هو الجزء الخاص بقضية دنشواى باعتبارها أهم الفصول فى حياة الرجل.

ولكن قبل أن نستمع إلى حججه ودفاعه عن نفسه، نقدم خلاصة مركزة عن هذا الحادث الذى هز مشاعر المصريين جميعا.

وقائع الحادث:

للدكتور محمد جمال الدين المسدى دراسة تاريخية وافية عن حادث دنشواى، وموقعه من الانتفاضات التى قام بها الفلاحون المصريون ضد الظلم والطغيان، مما ينفى عنهم وصمة الخنوع والاستكانة، ويثبت أن الفلاح المصرى صبور، ولكنه يثور على الظلم والاستبداد فى النهاية، وإذا كانت حرفة الزراعة علمت الفلاح الصبر، وإذا كانت أرض مصر المستوية ذات المواصلات السلهلة ساعدت حكومتها على إخماد ما يقوم فيها من ثورات فى سرعة وسهولة، وإذا كانت سيطرة الحكومة على وسائل الرى والصرف جعلت رزق الفلاح وحياته فى يدها مما جعله يقلب الخضوع لسلطانها عن طيب خاطر.. إلا أن هذا لا يعنى الاستكانة للظلم.. ولم يمنع الفلاحين من الثورة على مدار التاريخ.. ومن بين انتفاضات الفلاحين يبرز حادث دنشواى، وينفرد بمكانة خاصة فى التاريخ المصرى، للظروف التى سبقته وأحاطت به، والنتائج التى ترتبت عليه، وفيما عدا ذلك فحادث دنشواى لا يعدو أن يكون إحدى وقفات الفلاحين فى وجه مظالم الحكام والاحتلال الأجنبى.

أما وقائع الحادث فى حد ذاتها فهى بسيطة.. ففى يوم ١٣ يونيو ١٩٠٦ ذهب بعض ضباط جيش الاحتلال البريطانى لصيد الحمام فى قرية دنشواى من قرى مديرية المنوفية دون استئذان الفلاحين، أطلق

الضباط الرصاص على الحمام فى «جرن» القرية وقت (دراس) القمح فأشتعلت النار فى الجرن، وقامت معركة بين الفلاحين الذين هبوا لدفاع عن ممتلكاتهم، وبين الضباط الإنجليز، وفى هذا الاشتباك أصيبت إحدى السيدات وعدد من الأهالى، كما أصيب بعض الضباط الإنجليز إصابات بالغة أدت إلى وفاة أحدهم.

قدم الفلاحون إلى محكمة مخصوصة غالبية أعضائها من الانجليز. ولها سلطات مطلقة فى إجراءات المحاكمة وفيما تصدر من أحكام، وقد أصدرت حكمها بإعدام عدد من الفلاحين. وبجلد وسجن عدد آخر، نفذت فيهم الأحكام علنا أمام أهالى القرية فى مكان الحادث، وفى نفس الوقت من النهار الذى وقع فيه الحادث، وهى طريقة وحشية تبدو فيها الرغبة فى الارهاب والتشفى. ولقد أثار الحادث والأحكام التى صدرت، والطريقة التى نفذت بها، موجة من السخط العام فى مصر والخارج، بما أدى إلى تقوية الحركة الوطنية وجذب الفلاحين إلى صفوفها، وفى بريطانيا أدى إلى استياء الرأى العام الإنجليزى وقيام حملة فى الصحف وفى مجلس العموم على سياسة المعتمد البريطانى «كرومر» مما أدى إلى استقالة كرومر من منصبه فى مصر، وإلى تغيير فى سياسة الاحتلال بحيث أصبحت أميل إلى الاعتدال وهى السياسة المعروفة بسياسة «الوفاق».

أقصى العقوبات:

أنعقدت المحكمة المخصوصة فى نفس موقع الحادث برئاسة بطرس باشا غالى وزير الخارجية بصفته قائما بعمل وزير الحقانية (العدل)

وعضوية كل من: مستر «وليام جودينو» القائم بأعمال المستشار القضائى، ومستر «بوند» نائب رئيس محكمة الاستئناف الأهلية، والكولونيل «لادالو» القائم بأعمال القضاء فى جيش الاحتلال، وأحمد بك فتحى زغلول بصفته رئيس محكمة القاهرة الابتدائية، وتولى السكرتارية عثمان بك مرتضى، وقام بمهمة الادعاء: إبراهيم بك الهلباوى، وتولى الدفاع عن المتهمين كل من: أحمد بك لطفى السيد، ومحمد بك يوسف، وإسماعيل بك عاصم.

فى الجلسة الأولى قرأ الهلباوى الاتهام وطالب بمجازاة المتهمين بأقصى العقوبات وفى الجلسة الثانية تكلم الهلباوى عن الفوائد التى عادت على مصر من الاحتلال، وتطرق من ذلك إلى رواية ما حدث فى دنشواى بين الضباط والأهالى على أساس الرواية الانجليزية، أى أن الأهالى أشعلوا النار عمدا فى الجرن لاتخاذ ذلك ذريعة لمهاجمة الضباط، وأن الرصاص الذى أصاب الأهالى كان كله من طلقة واحدة خرجت من بندقية الضابط (بورتر) بعد أن انتزعها منه الأهالى، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك وقال إن الأهالى كانوا يريدون قتل الضباط، بعد ذلك امتدح الهلباوى سلوك الضباط الإنجليز وتصرفهم بحكمة، وطالب بإعدام ستة من المتهمين باعتبارهم المحرضين الذين قادوا الهجوم وطالب بالأشغال الشاقة المؤبدة لباقى المتهمين وعددهم تسعة وخمسون شخصا.

وفى يوم الأربعاء ٢٧ يونيو أصدرت المحكمة حكمها ويقضى بإعدام أربعة (أى أقل من العدد الذى طالب به الهلباوى) والأشغال الشاقة على

أثنين فقط، والأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة على واحد، والأشغال الشاقة ٧ سنوات على ستة، والجلد خمسين جلدة مع الحبس والشغل لمدة عام على ثلاثة، والجلد خمسين جلدة على خمسة فلاحين.

وفى ٢٨ يونيــو ١٩٠٦ نفــذت أحكام الإعــدام والجلد فى أهالى دنشواى. وكانت قد أعدت لتنفيذ الأحكام أرض فضاء تواجه دنشواى وتواجه مكان الحادث من ناحية الشمال. فى هذه الأرض، وفى مكان المشنقة، يقوم الآن متحف دنشواى. فى هذه الأرض نصبت المشنقة، وقريبا منها آلة الجلد (العروسة)، وضربت خيمتان إحداهما للمحكوم عليهم بالشنق والأخرى للمحكوم عليهم بالجلد. وجىء بالمحكوم عليهم من نقطة بوليس الشهداء، وكانوا قد نقلوا إليها من شبين الكوم فى الصباح الباكر، إلى ساحة التنفيذ وقد اصطف حولها نطاقان، أحدهما من البوليس المصرى والآخر من قوات الاحتلال. وحضر التنفيذ مدير المنوفية، ومستشار الداخلية، ومفتش الداخلية، والعمدة والمشايخ والخفر فى دنشواى.

بدأ التنفيذ فى الساعة الثانية بعد الظهر وهو نفس الوقت الذى وقع فيه الحادث. بدأوا بحسن على محفوظ، السجين رقم ١١ وأول الشهداء. فصعد إلى المشنقة ونطق بالشهادتين، ثم قام الجلاد بمهمته وترك جسد حسن محفوظ متدليا من حبل المشنقة مدة ربع ساعة تم خلالها جلد اثنين من المحكوم عليهم، كل منهما خمسون جلدة، وهما: حسن إسماعيل السيسى وإبراهيم حسنين السيسى.

بعد ذلك نفذ حكم الإعدام فى انسجين رقم ١٤ الشهيد يوسف حسن سليم، وقد صعد درجات المشنقة بثبات رغم أن سنه لم تتعد ٢٢ عاما، ثم واجه القرية قبل تنفيذ الحكم وصاح بأعلى صوته «لعنة الله على الظالمين» وكررها مرتين. وجلد بعده اثنان. وعلى هذه الوتيرة سار تنفيذ الأحكام.

ويقول الشيخ عبد الغفار الشاذلى عمدة دنشواى السابق، إنه لم يسمح للأهالى بتشييع جثمان الشهداء إلى المقابر، وقام رجال البوليس بدفنهم.

الهلباوى يتكلم:

هذا هو ملخص حادث دنشواى والنتائج التى ترتبت عليه والأصداء التى تركها فى نفوس المصريين. والآن ماذا يقول الهلباوى دفاعا عن نفسه، وتبريرا لقبوله منصب النائب العمومى أمام المحكمة المخصوصة، يقول الرجل فى مذكراته التى ظهرت مؤخرا، وهو يدرك شغف القارئ للاستماع إلى هذا الدفاع:

يخيل إلى أن الذين سيقع بين أيديهم هذا الكتاب سيقلبون صفحاته سراعا باحثين عن تلك القضية التى شاء القدر أءن يقترن اسمى بها فهاأنذا أرضى فى نفوسهم غريزة حب الاستطلاع، فأبسط بين أيديهم هذه القضية - قضية دنشواى - التى يعلم الله أننى ما كنت وحدى لأستحق هذه الشهرة السيئة التى خلفتها على هذه القضية بل هناك كثيرون أولى وأحق بهذا الصيت المشين.

وقعت هذه الحادثة بناحية دنشواى فى يوم الأربعاء ١٣ يونيو ١٩٠٦ وقد كنت فى هذا اليوم مسافرا من مصر إلى عزبتى بناحية سيدى غازى (بمديرية البحيرة) قبل أن تقع الحادثة بعدة ساعات، وبقيت هناك بقية هذا اليوم ويومى الخميس والجمعة التاليين.

وفى صباح السبت ركبت القطار الذاهب إلى طنطا، وقد عزمت على أن أمر بدنشواى لأقدم نفسى متطوعا للدفاع عن المتهمين فى الحادثة. ولما وصلت طنطا حوالى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم المذكور وسألت المرحوم طلعت بك ناظر المحطة وقتئذ عن أقرب محطة إليها. فعلمت أن المحطة هى البتانون ومنها يذهب الإنسان إلى دنشواى، وأنه غير مضمون وجود عربة للذهاب بها إلى محل التحقيق، وقد أطلعنى حضرته على درجة حرارة الجو فى ذلك اليوم، فإذا بها فوق درجة ٤١، وقد نصحنى بألا أتم السفر فى ذلك الجو الشديد القيظ خصوصا وأن المسافة بين محطة البتانون ودنشواى نحو أحد عشر كيلو مترا، وأنه ربما لا يكون هناك فى ذلك اليوم تحقيق فأخذت بنصيحته وتابعت سفرى إلى القاهرة، وعند وصولى إلى منزلى وجدت رسولا من قبل صاحب العطوفة مصطفى فهمى باشا ناظر النظار وقتئذ يدعونى إلى الداخلية حالا فذهبت مع الرسول، وقابلت صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا ، وكان يومئذ سكرتير مستشار الداخلية، وأخبرنى أن الداخلية ترغب فى انتدابى لأن أكون قائما بوظيفة النائب العمومى فى التهمة التى سترفع أمام المحكمة المخصوصة للمرافعة مع الحكومة ضد المتهمين من أهالى دنشواى بالتعدى على الإنجليز، وقتل أحد الضباط وقد قال لى دولته: «إن الحكومة اختارتنى لأننى أكبر

المحامين الموجودين سنا وأقدمية. وتذكرت فى ذلك الوقت أن المحكمة المخصوصة التى قدم إليها المتهمون فى هذه الحادثة كان قد جرى على أن يمثل إتهامها شيخ من شيوخ المحامين. فعند أول تطبيق لقانون المحكمة المخصوصة فى حادثة قليوب اختير لتمثيل الاتهام فيها المرحوم أحمد الحسينى بك. وكان ذاك أكبر المحامين الموجودين سنا ومقاما. لذلك لم أجد مسوغا يسمح لى برفض القيام بهذه المهمة. وقد طلبت تحديد أتعابى، فقدرت كما طلبت بثلاث مائة جنيه وقد اشترطت أن تكون مهمتى قاصرة على الدفاع أمام المحكمة دون أن أشترك فى أعمال التحقيق. وبعد حديث بين المستر ميتشل مستشار وزارة الداخلية وعطوفة وزير الداخلية ورئيس النظار قبل طلبى فى ألا أتدخل فى التحقيق. وقد كان جاريا فى المنوفية بمعرفة حضرة النائب العمومى محمد باشا إبراهيم وسعادة محمد باشا شكرى مدير المنوفية. ولما انتهى التحقيق عرض على مانسفيلد باشا حكمدار بوليس القاهرة المكلف بمقتضى قانون تشكيل هذه المحكمة بأن يحرر تقريرا من واقع التحقيقات بإحالة من يرى إحالته إلى هذه المحكمة وبيان العقوبات التى يرغب توقيعها عليهم.

جاء ملف القضية إلى مانسفيلد باشا وراجع مع مستر موجولى مفتش الداخلية أوراق التحقيق دون تدخل منى، وكتب تقرير الاتهام بإحالة واحد وخمسين متهما على المحكمة المخصوصة طالبا معاقبتهم جميعا بالإعدام.

جاءتنى الأوراق بعد ذلك وهى محالة على المحكمة بهذه الكيفية والمعلوم والجارى عليه العمل فى محكام الجنايات العادية أن النائب المترافع فى الجلسة لا يملك طلب تعديل العقوبة بما يخالف قرار الإحالة. فإذن يكون اختصاص ممثل النيابة العمومية أمام المحكمة المخصوصة التى تشبه محكمة عسكرية استئنافية أقل سعة من اختصاص النائب العمومى المترافع أمام محكمة الجنايات العادية.

قانون المحكمة المخصوصة يجعل للقاضى الذى يحكم فيها السلطة بأن يحكم بأشد عقوبة على أى فعل من الأفعال المسندة إلى المتهمين مادام قانون العقوبات يجعله من الأفعال المعاقب عليها، ولو كانت عقوبته من أخف عقوبات الجنح والجنايات، فإذا كان اختصاص قضاة هذه المحكمة واسعا إلى هذا، وإذا كان الممثل لقاضى الإحالة حكمدار بوليس القاهرة طلب عقوبة الإعدام على جميع المحالين إلى المحكمة، وقد كانوا واحد وخمسين متهما فماذا يصنع القائم بوظيفة النائب العمومى وما هو الحول أو القوة التى تخوله الخروج من هذا الحد المرسوم له.

بالرغم من هذا، لما قرأت أوراق الدعوى تبينت أنه من الشطط الفاضح ألا يميز بين المتهمين وبعضهم فى المسئولية، وطلبت من المتصلين بى من رجال الحكومة أن أخرج نحو الخمسة عشر متهما من طلب عقوبة الإعدام بطلب صريح فى الجلسة ولا أوافق تقرير الاتهام بالنسبة لعشرة منهم، وبعد أخذ ورد بينى وبينهم تمكنت من اقناعهم فقبل طلبى.

عقدت الجلسة التى نظرت فيها هذه القضية فى صيوان كبير يسع نحو ثلاثة آلاف شخص، ودعى إلى شهود المحاكمة الأعيان والعمد من مديرية المنوفية والمديريات التى حولها، وانتخب سكرتير الجلسة عثمان باشا مرتضى، ورئيسا للمحكمة المرحوم بطرس باشا غالى، وقاضيا آخر وطنيا خلاف الرئيس وهو المرحوم فتحى باشا زغلول وقاضيا انجليزيا وهو مستر بوند وكيل محكمة الاستئناف، ونائب المستشار القضائى بوزارة الحقانية، وضابط من الجيش الانجليزى حضر نيابة عن السلطة العسكرية، ونيابة عن الجيش.

فى هذه المحكمة التى انعقدت وفى هذا الجمع ترافعت بما أملاه على الواجب دون أن أتجاوز بكلمة واحدة بل ربما أستطيع أن أعترف هنا بأن شعورى بوطنيتى وصل بى إلى حد لا يتفق مع واجبى وذلك أنى دعوت لغرفتى بشبين الكوم قبل يوم المرافعة حضرات الأساتذة المحامين عن المتهمين وهم الأساتذة أحمد بك لطفى السيد ومحمد بك يوسف وإسماعيل بك عاصم، وأطلعتهم على كل النقط التى سأستند عليها فى دفاعى ضد المتهمين لكى لا يفاجأوا فى الجلسة.

ترافعت فوق الثلاث ساعات ولم أر من ذلك الجمع الغفير أى اشمئزاز بنقد ما قلته بل عندما أمرت المحكمة برفع الجلسة عقب مرافعتى للإستراحة، قابلنى تقريبا كل الحاضرين بالتحية والتهنئة على ما أبديته من الدفاع المتين فى القضية المذكورة.

ترافعت ثلاث ساعات دون إنقطاع، ومن بين النقط التى أوضحتها فى الجلسة الرد على أفكار قيلت لى أثناء دراسة القضية من بعض

الانجليز وهى أن تأخير ضابط نقطة الشهداء عن مقابلة الأورطة يوم وصولها إلى دنشواى كالعادة السنوية قد يدعو إلى الظن بأن هذا التغيب كان مقصودا لكى لا يحول حضور الضابط بين الأهلين وبين ارتكاب تلك الجناية.

والاشارة إلى تخلف هذا الضباط كانت ترمى إلى غرض أكبر خطورة من هذا وهو تفهيمى بأن هذا الضابط هو ابن أخت المرحوم حسين باشا محرم، وحسين باشا محرم سرياور الجناب العالى الخديو فى ذلك الوقت، فإن كان تأخر الضابط عن عمل فسوء الظن به يصل منه إلى خاله ومن خاله إلى صاحب السمو سيده.

وقيل لى حادث آخر تعزيزا لهذه الفكرة وهو أن عمدة الواط المجاورة لدنشواى كان من عادته أن يستقبل سنويا ضباط هذه الأورطة ويبعث لهم عربات لركوبهم ويدعوهم إلى حفلة شاى فى داره. وفى هذه المرة لم يسأل عنهم ولم يبعث أحدا بالنيابة عنه لاستقبالهم أو لدعوتهم. وهذا العمدة هو المرحوم عبدالمجيد باشا سلطان وقد أنعم عليه الخديو برتبة باشا قبل هذا الحادث بأسبوعين أو ثلاثة.

من هذين الحادثين رغب إلى أن أتوسع فى شرحهما لكى يكون ذلك وسيلة لإثبات أن واقعة التعدى على الضباط كانت مدبرة ومصمما عليها من قبل، فرفضت كل هذا وبالعكس أخذت شطرا كبيرا فى تفنيده وإقامة الحجج القاطعة على أن الحادثة بنت وقتها وأن الذى أذكاها وأوصلها إلى هذه النتائج الخطيرة على خلاف ما كان يجرى كل عام هو أن نارا تقدت فى جرن من أجران القمح المجاور لأبراج الحمام فى

أثناء طلقات العيارات النارية من الضباط لصيد الحمام، فاعتقد الأهالى أن هذه النار اشتعلت بسبب تلك الطلقات النارية فثاروا غضباً ولما شرعوا فى منه الضباط من الاستمرار فى إطلاق العيارات النارية لصيد الحمام، ولم يكن بينهم وبين الضباط من يسعى فى ترجمة كلامهم للضباط، ظن الضباط أنهم آتون للتعدى عليهم، فاستمروا فى إطلاق العيارات ولم يعبأوا بندائهم، على ذلك حمل بعض الصبية عصيا ليرهبوا بها الضباط فقفلوا راجعين. وهناك مات أحد الضباط من ضربة الشمس بسبب حرارة ذلك اليوم الشديدة، أما دفاع الأساتذة وكلاء المتهمين فلم يستغرق فى مجموعه أكثر من ساعة وربع وبعد النطق بالحكم، ذلك الحكم القاسى وهو إعدام أربعة شنقا وجلد ٦ أمام منازلهم علا الناس رهبة وفزعا، وقد أكون أشد الناس تأثرا من هول تلك الساعة.

وفى غرفة المداولة والثلاثة القضاة الإنجليز موجودون كانت على وجوههم جميعا علامات التأثير، سألنى رئيس المحكمة بطرس باشا، ما هو رأيى فى الحكم فقلت: إن مثلى أمام هذا الحكم كمثل أم جاءها الأطباء ينظرون فى أمر ولدها الوحيد لعلهم يجدون دواء له. ولما قرروا أنه من الضرورى لإنقاذ حياته بتر الفخذ، خضعت الوالدة وسلمت أمرها لله فلما قاموا بإجرائها وأتموها خرجوا قائلين لوالدته نجحت العملية ببتر الفخذ فلم يسع الأم المسكينة أمام هذا الخبر إلا أن تولول حزينة على ما أصاب ابنها فشأنى أمام هذا الحكم كشأن تلك الوالدة ومن الصدف السيئة إننى قبل هذا الحادث بنحو الشهرين كنت وكيلا عن رجال الكونت «زيزينيا» من تجار الإسكندرية فى قضية مضاربة

جـرت بينهم وبين أخـوة المرحـوم الـشيخ عـبـدالعزيز جـاويش لأنـهم مـتـجـاورون فى أرض مع الكونت، وكـان هناك خـلاف ونزاع بينهم بشأن هذه الأرض.

ترافعت فى هذه القضية بما يقتضيه الواجب أمام محكمة الجنح وأذكر أن القاضى كان فيها المرحوم عبدالرحمن إبراهيم بك الذى كان أخيرا وكيلا لمحكمة النقض.

أفرغت جهدى كما هو الواجب فى بيان أن الخطأ والمسئولية تقع على أخوة الشيخ، حكمت المحكمة بعقوبة أخوة الشيخ جاويش.

ما أتعس حظ المحامى وما أشقاه يعرض نفسه لعداء كل شخص يدافع ضده لمصلحة موكله، فإذا كسب قضية موكله أمسى عدوا لخصمه دون أن ينال صداقة موكله.

خرجت من هذه القضية وجاويش غاضب على ويتمنى أن يجد فرصة لينتقم لنفسه منى وقضية الوطنية ما أوسع معناها، والخيانة فى الوطنية ما أسهل التصديق بالتهمة فيها.

قذف وطعن:

جاءت قضية دنشواى والهلباوى يمثل المصلحة الإنجليزية ويطلب إعدام عشرة والمحكمة تحكم بإعدام أربعة، إذن يكون باب القذف والطعن على الهلباوى مفتوحا على مصراعيه وهكذا فتحت هذه المعركة فى جريمة تعنون بالخيانة الكبرى.

أمسى الهلباوى معروفا بعنوان لطيف وهبه له الشيخ جاويش وهو (جلاد دنشواى)، أما القضاة من المصريين الذين حكموا بالإجماع بالإعدام شنقا وبالتعذيب بالسياط وأولهم بطرس غالى وفتحى زغلول فلم ينعتوا بتلك النعوت التى تراكمت على رأس الهلباوى.

وفى ظنى - والكلام للهلباوى - أنه لولا الحظ العاثر الذى جعلنى خصما لعائلة جاويش لما توفر على كثير من تلك المطاعن.

وعقب الحملة الشديدة التى حملها «اللواء» على، كتب كثير من الجرائد أن الحكم الصادر بالعقوبة صدر بالأغلبية ويراد بهذا الإشارة أن فتحى باشا كان مخالفا للحكم، فنشر بلاغ رسمى من دار العميد الإنجليزى يصرح بأن الحكم صدر بإجماع القضاة الخمسة فقطعت جهيزة قول كل خطيب.

كبرى الفواجع :

إلى هنا تنتهى صحيفة الدفاع التى كتبها إبراهيم بك الهلباوى لتبرير قيامه بدور النائب العام فى محكمة دنشواى. وسوف أترك للقارىء الكريم حرية الاقتناع أو عدم الاقتناع بهذه الحجج، ولكن ، استكمالا لكافة وجهات النظر أعرض لرأى الدكتور عصام ضياء الدين الذى قام بتحقيق مذكرات الهلباوى قبل نشرها فى كتاب ، وسجل وجهة نظره - فى مقدمة الكتاب - حول موقف الهلباوى من قضية دنشواى ، وتسجل التغيير الذى طرأ على الحركة الوطنية من الهلباوى، وكيف غفرت له موقفه الخاطىء ، حتى أن المتهمين فى كافة القضايا الوطنية كانوا

يصرون على انتداب الهلباوى للدفاع عنهم، وإليك رأى الدكتور عصام ضياء الدين:

فليس بخاف وقوف الهلباوى موقف المدعى العام فى تلك القضية ، وليس بوسع أى مصرى تبرئة ساحته تمام، مثلما لا يملك أحد أن يبرىء ساحة بطرس غالى ، رئيس المحكمة المخصوصة ، التى باشرت هذه القضية ولقى حتفه من جرائها ، حيث كان قبوله لهذه المهمة أحد دوافع اغتياله فى عام ١٩١٠ فقضية دنشواى كانت بحق احدى الفواجع الكبرى التى رزئت بها مصر فى ظل الاحتلال البريطانى ، وقد وقف الهلباوى يترافع فيها عن الانجليز. فتركزت مرافعته على الفوائد التى عادت على مصر من نتيجة الاحتلال ، وتطرق من ذلك إلى رواية ما حدث فى دنشواى بين الضباط والأهالى على أساس الرواية الإنجليزية التى تزعم أن الأهالى كانوا يعرفون بوصول الضباط وأن الرصاص الذى أصاب الأهالى كان كله من طلقة واحدة خرجت من بندقية (بورتر) بعد أن انتزعها منه الأهالى بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك وقال إن الأهالى كانوا يريدون قتل الضباط . ثم امتدح الهلباوى سلوك الضباط وتصرفهم.

فلا غرابة أن قال الهلباوى : إن الحضور فى جلسات المحاكمة لم يوجهوا انتقادا له على ما أبداه من الدفاع المتين فى القضية .

وحاول الهلباوى جاهدا تبرئة ساحته من جراء قبوله الدعوى العمومية ضد الفلاحين تارة بأن الحكومة اختارته لأنه أكبر المحامين الموجودين سنا وأقدمية . وذلك قول مردود عليه ، إذ أن قانون المحكمة

المخصوصة ليس فيه نص ملزم، انما ينص فقط على أن «يختار البوليس محاميا لإثبات التهمة»، ومن ثم يتدارك الهلباوى فيقول إن الإنذار السرى البريطانى لمصر الرسمى من بين شروطه أن يجلس فى كرسى الادعاء أكبر محام فى مصر .

وتارة يخفف عن نفسه وطأة التورط بما أسداه من خدمة لعدد من الفلاحين حينما قال إنه أعتق مقدما خمسة عشر متهما من طلب عقوبة الإعدام حسبما طلب قاضى الإحالة .

وتارةيقول بأن شعوره بوطنيته بلغ إلى حد لا يتفق مع واجبه ، حينما دعا إلى لقائه المحامين عن المتهمين قبيل مرافعته وعلى رأسهم أحمد لطفى السيد، وأطلعهم على أركان دعواه لكى لا يفاجأوا فى الجلسة بذلك .

وتارة يسوق لنا حديثا جرى بينه وبين بطرس غالى فى أعقاب الحكم يبدى فيه شديد ألمه على ما أصاب المتهمين من أحكام .

والأدهى من ذلك أن يحاول الهلباوى مهاجمة الشيخ عبد العزيز جاويش فى سياق دفاعه عن نفسه فى «دنشواى» ويوضح أن الخصومة تولدت بينه وبين عائلة الشيخ جاويش لوقوفه للدفاع عن خصمهم فى قضية مضاربة ، مما حدا بجاويش لأن يفتح النيران عليه فى جريدة «اللواء» حينما وصفه بأنه «جلاد دنشواى» لكونه كسب قضية ضد إخواته.

لكن الواقع أن الهلباوى قد جانبه الصواب إذ أن الذى أطلق عليه هذه الصفة الشاعر حافظ إبراهيم حينما قال :

أيها المدعى العمومى مهلا

بعد هذا فقد بلغت المرادا

قد ضمنا لك القضاء بمصر

وضمنا لنجلك الاسعادا

فإذا ما جلست للحكم فأذكر

عهد مصر فقد شفيت الفؤادا

لا جرى النيل فى نواحيك يا

مصر ولا جادك الحيا حيث جادا

أنت أنبت ذلك النبت يا

مصر فأضحى عليك شوكا قتادا

أنت أنبت ناعقا قام بالأمس

فأدمى القلوب والأكبادا

ايه يا مدرة القضاء ويا من

ساد فى غفلة الزمان وشادا

أنت «جلادنا» فلا تنس أنا

قد لبسنا على يديك الحدادا

فالملاحظ أن حافظ إبراهيم قد ألقى هذه الكلمات الدامية فى يوليو ١٩٠٦ بينما كان أول كتابة للشيخ جاويش فى «اللواء» فى ٣ مايو ١٩٠٨ على إثر استقالته من خدمة الحكومة وتوليه رئاسة تحرير اللواء بعد حادث دنشواى بعامين. كما يلاحظ أن جاويش لم يخص الهلباوى بالهجوم وانما تجاوزه إلى بطرس غالى.

وإذا كان كل من بطرس غالى وفتحى زغلول قد حصل على المقابل لاشتراكه فى هيئة المحكمة، فالأول صار كبيرا للنظار، بينما ترقى الثانى إلى وكيل نظارة الحقانية بعد أن كان رئيسا لمحكمة القاهرة الابتدائية الأهلية، وذلك على الرغم مما اشتهر به من الارتشاء وسوء السلوك إلا أن الهلباوى كان بوسعه التعيين مستشارا لمحكمة الاستئناف، بل واتخذت الاجراءات حيال ذلك حيث أخذ يصفى أعماله فى مكتبه الخاص، لولا أن جاءته الحكمة من امرأة ريفية كفيفة البصر، إذ قالت له إن منصب المستشار مع عظمته يشغله نحو الثلاثين مستشارا، وقل أن يذكر اسم واحد منهم أو يعرف خارجا عن سراى المحكمة، بينما الهلباوى المحامى تعرفه مصر كلها، وناشدته أن يظل فى نصرة الضعفاء، فتأثر الهلباوى كثيرا من حديثها، فعزف عن منصب القضاء، وعاد إلى عمله فى عالم المحاماة. وتوليه هذا المنصب كان من الممكن أن يدينه أكثر على أساس أنه جنى ثمرة قبوله الدعوى العمومية فى دنشواى مثلما كان الحال بالنسبة لبطرس غالى وفتحى زغلول. وعلى الرغم من ذلك لم يغفر الوطنيون له هذه السقطة، إذ كانوا قد ألفوا من قبل تحديه السلطان من أهل الحكم.

فما كان عليه إلا أن ينهج نهجا وطنيا لعله يزيل آثار تورطه فى دنشواى بالنسبة لشخصه من وجدان الشعب المصرى.

وينتقل الدكتور ضياء الدين إلى التحول الذى طرأ على موقف الحركة الوطنية من الهلباوى فيقول: فنلمح فى عام ١٩٠٩ وقوفه فى صف الوطنيين إبان التظاهر ضد قانون المطبوعات المكبل لحرية

الصحافة، إذ طلب المقبوض عليهم من الطلبة بقيادة أحمد حلمي صاحب جريدة «القطر المصرى» أن يتولى الدفاع عنهم، مع أنهم سبق لهم التظاهر ضده لموقفه في دنشواى.

فالهلباوى آمن بقدسية حرية الصحافة، والثورة ضد من يعتدى عليها، لذا فأنه كان ضد قانون المطبوعات الذى عده أول سد يهدم هذه الحرية، بل ونسب إلى نفسه من قبل التأثير على مصطفى رياض لئلا يلجأ إلى العمل بذلك القانون، بعد ما أوضح له مدى الضرر بالصحافة وحرية الكتاب، لاسيما «وأن كثيرا من الأعمال التى يقوم بها الانجليز في البلاد لا يتفق مع الروح الوطنية والنزعة القومية»، فتعطل لذلك العمل بقانون المطبوعات حتى أحياه بطرس غالى فى مارس ١٩٠٩.

القضايا الوطنية:

ولم يستجب الهلباوى لطلب بطرس غالى بالتنحى عن الدفاع عن أحمد حلمى على الرغم من تلويحه بالعفو عن شقيق للهلباوى كان سجينا. وليس بخاف أن أحمد حلمى قد هاجم عائلة محمد على برمتها وطالب أن يحكم مصر مصرى مما كان محل سخط من الخديو عباس الذى تطلع بدوره إلى استخدام الهلباوى بديلا عن محمد فريد فى زعامة الحزب الوطنى.

لم يأبه الهلباوى بالضرر الذى يمكن أن يلحق به، لاسيما وأنه منذ عام ١٨٩٣ كان مستشارا للخاصة الخديوية إلى جانب كونه مستشارا للأوقاف الخصوصية ومستشارا لديوان عموم الأوقاف، وذلك إيمانا منه

بأن المحامى من الممكن ألا يخضع فى واجبه لمصلحة خاصة حتى ولو فى ذلك اغضاب لولى الأمر.

ومثلما رفض مسعى لبطرس غالى، رفض أيضا مسعى لحسين رشدى ناظر الخارجية، وامتد الضغط بالتلويح بحرمانه من امتيازاته التى يتقاضاها من الوظائف التابعة للخديو، فرفض التراجع مفضلا استقالته واستمر فى الدفاع عن المتظاهرين فى قضية قانون المطبوعات حتى حصلوا على البراءة.

ففتح الوطنيون بذلك معه صفحة جديدة فاستعانوا به للدفاع عنهم فى القضايا السياسية ابتداء من حادثة بطرس غالى فى ٢٠ فبراير ١٩١٠، فلقد حرص إبراهيم الوردانى أن يكون الهلباوى محاميا عنه وطلب منه ذلك رسميا بشرط أن ينتقد مسألة دنشواى،

وكانت فرصة مواتية للهلباوى لكى يصالح الوطنيين فهاجم فى مرافعته المحكمة المخصوصة، واعترف بأنه نال من الغضب ما نال غيره من الذين اشتركوا فيها. ثم وضع هيئة المحكمة فى مأزق حينما طبع مذكرته للدفاع كاملة، ووزع نسخا منها قبيل الجلسة وأثناءها، بينما قررت المحكمة فجأة جعل الجلسة سرية، عندما تناول الدوافع السياسية التى من أجلها أقدم الوردانى على اغتيال كبير النظار.

وإذا كانت قضية اغتيال بطرس غالى قد أثارت نوعا من الجدل بفعل ما أثاره بعض المتطرفين الأقباط حينما أوحوا بأن ثمة غبنا يحيط بالأقباط المصريين، فغالوا فى مطالبهم من خلال مؤتمر قبطى عقد لهذا الغرض فى أسيوط فى مارس ١٩١١، إلا أنه قدر للهلباوى أن

يكون سكرتيرا عاما للمؤتمر المصرى الذى انعقد فى مايو من نفس العام بهليوبوليس لدحض مزاعم مؤتمر أسيوط.

ونراه يكتب فى «المؤيد» دفاعا عن الوحدة والجامعة الوطنية بين المسلمين والأقباط وضرورة نسيان كل المفارقات المذهبية وعدم النظر لغير الصفة الوطنية العامة وطلب إلى الحكومة، أن تنظر فى إعطاء الوظائف دائما إلى مستحقيها سواء كان مسلما أو قبطيا.

فيلسوف الأطباء وحكيم الأدباء

كان الدكتور محجوب ثابت من أقرب الشخصيات العامة إلى قلوب الجماهير خلال النصف الأول من القرن العشرين. وكانت الصحف والمجلات تجد فى مداعبته وإثارته مادة دسمة محببة إلى الناس، ويرجع ذلك إلى تعدد مواهبه، وتنوع نشاطاته.. فهو الطبيب النطاسى، وهو السياسى اللامع، والخطيب المفوه، والكاتب الحاذق، والمتبحر فى علم التاريخ، والحجة فى مصطلحات اللغة العربية وآدابها، فكان بين الأطباء فيلسوفا، وفى الأدباء عالما، وبين الساسة خطيبا لا يشق له غبار.. وكان يجمع بين سعة الصدر وسرعة الغضب.. ينطوى جسمه الضخم على قلب طفل يقطر رقة. فإن مست كرامته استحال بحرا هائجا.. جرفته الحياة العامة منذ صدر شبابه مناضلا فى صفوف الزعيم مصطفى كامل وخليفته محمد فريد، وكان أشبه بمحمد فريد فى تجرده ونزاهته. وما ابتغى من جهاده منصبا أو نفعا.. ولقى السجن والنفى فما وهنت عزيمته، وقضى حياته شهيدا يمشى على

قـدمين حتى غادر الحـياة فى عام ١٩٤٥ كـما دخلها عريانا إلا من شرف الجهاد.. ونزاهة التضحية.

كان أبوه «ثابت»، من أهالى دنقلة، وعمل فيها مهندسا مشرفا على الحصون الأميرية، وهاجر إلى مصر فى السنة التى ولد فيها محجوب (١٨٨٤) وبعد أن تخرج طبيبا عمل أستاذا مساعدا فى جامعة بروكسل، ثم عاد إلى مصر ليخوض مع المناضلين فى سبيل استقلالها، ولم يمنعه الحس الوطنى من أن يقف إلى جانب نضال العرب والمسلمين، فتطوع فى صفوف الهلال الأحمر إلى جانب الأتراك ضد الصرب فى حرب البلقان عام ١٩١٢ . كما كان من المؤمنين بوحدة وادى النيل، فلا يذكر اسم مصر إلا مقترنا بالسودان، ولا يذكر السودان إلا مقترنا بمصر. وكـان حـريصـا على أن يكتب فى نهـاية اسـمـه: المصـرى العـربى السودانى.

وإلى جانب هذه الاهتمامات السياسية، كان الدكتور محجوب ثابت سلطان المجالس فى مجال السمر، كان سمره علما وتوجيها، وأحاديثه تعليما وتثقيفا يلتف حوله رجال السياسة والأدب والصحافة لينهلوا من معينه الذى لا ينضب، وثقافته الشاملة التى تمتد إلى كل فنون المعرفة، يقول عنه صالح البهنساوى الصحفى بالأهرام: كان الكل يسعى إلى مجلسه، ويبحثون عن مكانه، لأنه كان حلو الحديث، دائب المرح، فياضا فى معلوماته، اصطفاه سعد زغلول وقربه إليه، وكان محببا عنده لأنه أخلص فى العمل معه.

وقال عنه العلامة السورى محمد كرد على. كان الدكتور محجوب ثابت صورة فريدة من صور الرجال بعلمه وبيانه وعمله ووطنيته، فطر على صفات نادرة، واتجهت قواه منذ صباه لخدمة المصلحة العامة، وعمل فى تواضع خال من التمجد والتبجح، وما طلب العوض عما أجهد نفسه فيه، ذلك أنه كان متشبعا بروح النهوض، يعرف كيف يرضى ضميره بأداء فرض لابد من قضائه، كان مثال العامل الصالح فى شيخوخته على نحو ما كان زمان كهولته وفتوته، كنت تراه إذا جد الجد نسى كل مصلحة خاصة، فتمثل لك شخصا لا يحسن غير فنه، وإذا هزل طنتنه رجلا شغل حياته فى الضحك والاضحاك، لا يحفل بمصطلحات الناس واعتباراتهم، ولا يبالى بالوقت يصرفه فى غير فائدة، كان على حظ عظيم من عزة النفس، وعلى جانب من جمال العهد، وفيا إلى أقصى حدود الوفاء، وفيا لوطنه يسهل عليه بذل كل نفيس ليحقق له بعض سعادته، وفيا لعلمه، يزيد أبدا فى معلوماته وتجاربه، ظل على ذلك إلى آخر أيام حياته، وفيا لمرضاه يعنى بصحتهم وتخفيف آلامهم عنايته بكل مطلب من مطالب أمته، وفيا لأصحابه لايدخر وسعا فى مرضاتهم وإدخال السرور على قلوبهم، ولو قدر له أن يبذل فى خصوصياته بعض ما بذل فى خدمة الآخرين لصار فى الموسرين، ولو كان يسف إلى استثمار كل شئ لحسابه لكان من السمو والصعود فى الذروة العليا بين رجال الدولة، ولكنه ماخلق إلا ليخدم المجموع، لم يخلق ليخدم مصلحته ويتفانى فى جلب المنافع لها، فهو رجل القوم، لا رجل فى القوم، هو لقومه حسا ومعنى.

جمع المال للقضية الوطنية

كان الدكتور محجوب ثابت من رجال الحزب الوطنى، فلما اندلعت ثورة ١٩١٩ وقف إلى جانب سعد زغلول بكل ما يملك من سخونة القول، وصدق الجهاد، فلما سافر سعد وأعضاء الوفد إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح، بعث سعد زغلول إلى عبد الرحمن فهمى يطلب توفير المال اللازم للانفاق على إقامة أعضاء الوفد، ومواجهة الحملات المضادة التى تشنها الصحافة الاستعمارية ضد المطالب الوطنية المصرية، فما كان من محجوب ثابت إلا إن أغلق عيادته - مصدر رزقه الوحيد - ليجوب البلاد من أجل جمع الاكتتابات لتمويل الوفد، يدعو الأثرياء بصوته المدوى الذى ينفذ إلى القلوب، يحفزهم ويستثيرهم إلى بذل المال فى سبيل القضية الوطنية، وأخذ يجوب القرى والنجوع فى أعماق الصعيد وقد آلى على نفسه أن تكون نفقات رحلاته على حسابه الخاص، ومن ماله المدخر، على حين كان غيره من مرافقيه فى تطوافه قد أثرى، يستقطع نفقات الرحلات مما كان يجمع، ومنهم من كان يثرى من هذا العمل الوطنى، ولم ينحصر عمل محجوب خلال جولاته فى جمع الأموال، بل كان يتهز الفرصة ويجعل من نفسه رسول سلام ووسيط صلح بين العائلات المتخاصمة، وخاصة ما كان بين «الأشراف» و«الحميدات» فى قنا. فأقسم أنه لن يغادر المدينة إلا بعد الصلح بينهما، وكان له ما أراد ونجح فى الجمع بين العائلتين وأزال ونجح بينهما من عداء مستحكم.

سعد يدبر المقلب لمحجوب

● كان محجوب ثابت يتمتع بحب زعماء الحركة الوطنية ورجال السياسة والأدب على اختلاف أحزابهم وطوائفهم. وكان هذا الحب ينقلب إلى مناوشات بسبب المقالب التى يشتركون فى تدبيرها له حتى تنقلت أعصابه وينطلق لسانه بكل ما هو بديع من فنون الشعر والأدب، وكان إذا ضاق صدره من مقالبهم اعتزالهم وانكمش فى صومعته بين الكتب، فلا يطيقون بعده عنهم، ويهرعون إليه معتذرين وراجين منه العودة إلى حلبة السهر فى صالة «صولت» حيث يلتقى أساطين الشعر والأدب والظرف من أمثال أمير الشعراء أحمد شوقى، وشاعر النيل حافظ ابراهيم، والشيخ عبدالعزيز البشرى، ورئيس تحرير الأهرام داود بركات صديقه الأثير، إلى جانب محمود فهمى النقراشى وكان يدلله باسم «نقرش».. ولا يلبث الرجل أن يستجيب لرجائهم. ويعود إليهم بعد أن يزول ما علق بنفسه من مرارة المقالب وحبكة المؤامرات. لعل أروع هذه المقالب هو ذلك المقلب الذى اشترك فى تدبيره زعيم الأمة سعد زغلول بعد أن فاز الدكتور محجوب بعضوية مجلس النواب عن دائرة مينا البصل، وكان سعد رئيسا للمجلس. وكان المفروض أن ينظر المجلس فى الطعن المقدم بشأن انتخاب الدكتور محجوب، ولم يكن فيه ما يمس عضويته. إلا أن سعد باشا أوعز إلى اللجنة المختصة بنظر الطعن بتأخير عرض التقرير على المجلس حتى يلعب بأعصاب الرجل، ويستثير دعاباته.. وكان الدكتور محجوب كثير الشكوى والتأفف من تباطؤ اللجنة فى عرض التقرير، ولا يكف عن عرض شكواه على رئيس المجلس - سعد باشا - ويقول له: أظن أن القضية الوطنية والمشاكل

الدولية ستحل قبل أن تحل مسألة صحة عضوية محجوب!! فكان سعد باشا يطمئنه، دون أن يدور فى خلد محجوب ثابت أن سعد باشا وراء هذا المقلب.. حتى إذا حان موعد عرض التقرير حرص سعد زغلول على رياسة الجلسة بنفسه حتى يرى نهاية «التمثيلية»، وكان سعد قد كلف النقراشى باشا بأن يتصل بالنواب، ويوزع عليهم الأدوار وكان يرأس الجلسة أحد الوكيلين بينما سعد فى مكتبه، فلما حان موعد عرض التقرير سارع النقراشى بإبلاغ سعد بأن المجلس سينظر الآن فى صحة نيابة الدكتور محجوب، فنهض سعد مهرولا إلى المنصة كأنه شاب فى عنفوان شبابه، ولم ير سعد يجرى بمثل تلك السرعة قبل ذلك اليوم ولابعده (وكان هذا اليوم هو ٦ يوليو ١٩٢٧ أى قبل أسابيع من دخول سعد فى محنة مرض الموت) وكان سعد قد أوعز إلى أصدقاء الأحرار الدستوريين وعلى رأسهم محمد محمود باشا، هم الذين يصرون على إرجاء النظر فى الطعن المقدم ضده، فلما بدأت الجلسة طلب بعض النواب تأجيل النظر بحجة أن قرار اللجنة وزع على النواب فى وقت ضيق وعندئذ طلب حمد الباسل باشا الكلمة، وهو يتصنع الجد وقال: ياحضرات النواب أنا أطلب التأجيل حتى لا نتعجل فى حرمان المجلس من رجل فى مثل مكانة الدكتور العلمية، فوقف الدكتو محجوب غاضبا وقال: لا ياسيدى.. أنا لا أقبل أن تكون نيابتى معلقة، وأن يكون عدم النظر فى الطعن كاحسان منكم، وأتمسك أن تعلنوا برفض الطعن أو قبوله إن كان ما ترونه حقا، وهنا أعطى سعد الكلمة إلى على بك أيوب، فإذا به يعلن أن اللجنة قد أخطأت فى تقرير رفض الطعن، مدللا على ذلك بخطأ حسابى غير مقصود وقعت فيه اللجنة أثناء جمع الأصوات،

ويعنى ذلك أن على أيوب كان يعلم بصحة نيابة الدكتور محجوب، ولكنه - تمشى مع خطة الدعابة والإخراج التى رتب أدوارها سعد باشا، وانتاب الدكتور محجوب الفزع، واعترى الأعضاء الوجوم خوفا من إسقاط عضويته.

وهنا.. طلب سعد باشا من على أيوب أن يعيد الكلام بتؤدة حتى يستطيع الرئيس فهم ما يقوله ، وتظاهر سعد بأنه لم يفهم كل كلامه، وظل على أيوب يكرر الكلام الذى يفيد معنى قبول الطعن أربع مرات بينما انكمش الدكتور محجوب كالمأخوذ، وخلفه جلس النقراشى متظاهرا بالأسف وفى يده جريدة يروح بها للدكتور، وخشى الدكتور أحمد ماهر باشا أن تنهار أعصاب محجوب ثابت، فطلب الكلمة ولكن الرئيس أمهله، وأعطى الكلمة لمحجوب ثابت فصاح مستصرخا:

- يا دولة الرئيس.. يادولة الرئيس.. أمزاح هذا أم جد؟

الرئيس: بل جد فى جد..

محجوب: إذن أطلب التأجيل..

الرئيس : قلنا ذلك.. وأنت الذى أصررت على عدم التأجيل، وعليه فطلب التأجيل الآن مرفوض!..

محجوب: إن كلام على بك أيوب جاء مفاجأة لى ولإخوانى، وتحتاج هذه المفاجأة إلى إمعان النظر، ولا تنسى يادولة الرئيس أننى الوفدى الأصيل..

الرئيس: وهو كذلك.. والكلمة الآن للنائب المحترم الدكتور أحمد ماهر..

فوقف أحمد ماهر بين دوى من التصفيق، وأخذ يفند أقوال على أيوب، مبينا للمجلس كيف أنه تعمد استغلال أخطاء مطبعية وقعت فى تقرير اللجنة استغلال قصد به مداعبة الدكتور محجوب ثابت فلما ختم كلامه معلنا رفض الطعن، قوبل ذلك بالتصفيق والموافقة وتحول وجوم النواب إلى اغتباط وسرور وتجمع النواب حول الدكتور محجوب وحملوه على أكتافهم إلى «بوفيه» المجلس فى مظاهرة مرحة، وأخذوا يطالبونه بأن يوزع عليهم الشربات فيقول لهم: يأأيها النواب الزملاء.. أشكركم.. عندما يمرض أحدكم سأعالجه بدون مقابل، ولكنهم أصروا على مطالبته بالشربات والليمونادة، فما كان منه إلا أن أخرج قطعة معدنية من ذات العشرة قروش وناولها إلى متعهد البوفيه وهو يقول: يقينا ياولدى هذا المبلغ فوق الكفاية.. إسقهم جميعا ما يطلبون..

فهمتها وهى طايرة

● هل كان الدكتور محجوب ثابت لا يعلم بخلفيات هذا المقلب الذى تم تدبيره بمعرفة الزعيم سعد زغلول؟ يروى كاتب سيرته صالح على عيسى السودانى، على لسان الدكتور محجوب ثابت بأنه كان يعلم إلى حد ما أن المؤامرة الحبية المقصود بها المزاح ويقول: ولكننى تغابيت وتظاهرت بأنى قد خدعت، ولا تنس يا ولدى قول معاوية بن أبى سفيان «إذا خدعك إنسان وانخدعت له، وأنت عالم بأنه يخدعك، فأنت الخادع.. لا من خدعك».. إسمع: لاتصدق بأنى كنت مخدوعا أو

مأخوذا، حينما كان يسندنى «نقرش» - أى النقراشى باشا - ويروح على بالجريدة، لا تصدق ياولدى أنى كنت مروعا خائفا.. إنما كنت أقارضهم مزاحا بمزاح، ودعابة بدعابة.. وضحكا بضحك!.. وهل تصدق أنى لم أفهم كلام حمد الباسل، أو أنى لم أفطن إلى طريقة على أيوب؟ أما مسألة إيحاء سعد باشا إلى لجنة الطعون بارجاء النظر فى صحة نيابتى فقد فهمتها وهى «طايرة»، وكنت أعلم السبب الذى حمل سعد باشا على أن يمزج الجد بالمزاح..

أول ما شطح نطح

بقيت مسألة انتساب الدكتور محجوب ثابت إلى حزب الوفد فيما ورد على لسانه مخاطبا سعد زغلول بأنه يعرف وفديته.. والصحيح أن محجوب ثابت لم يكن وفديا.. ولكنه كان على ولاء لسعد زغلول بصفته زعميا للأمة وقائدا لثورتها، حتى إذا خلت دائرة مينا البصل سنة ١٩٢٧ رشح الوفد أحد كبار أعضائه وهو الشيخ مصطفى القاياتى، وكانت معركة فى غاية الشراسة، وأشرف عليها النقراشى، وخاضها محجوب ثابت، وهو لا يملك «دانقا» على حد قوله.. وكان فى خطبه الملتهبة حريصا على الوفاء لسعد وجهاده، ناعتا إياه بأنه «نبى الوطنية» وأنه زعيمه ورئيسه.. والمثل الأعلى للمجاهدين.. ويقول فى خطبة موجها الكلام إلى سعد زغلول: يا سعد أنا معك رضيت أو لم ترض، مادمت للوطنية رمزا.. أنا معك وبجانبك مجاهدا.. وأنت معى بمشاعرك وحبك وقلبك، أما النقراشى والقاياتى، زميلاى، فإنى أود أن

أقول: إنك أوفدتهما للاسكندرية لمعاكستى على سبيل المزاح، والمداعبة، لا أحب أن أصدق أنهما من الخصوم.. وإلا فعلى الدنيا العفاء»..

وفى مساء يوم الانتخاب ظلت الهيئات السياسية والصحف متلهفة على معرفة نتيجة المعركة، وفى مقدمتهم غلاة الوفديين، راجين فوز محجوب ثابت، وظلت أسلاك التليفون تهتز، حتى سعد زغلول نفسه - وهو زعيم الأغلبية ورئيس مجلس النواب - يطلب أن يخلى له خط التليفون مع الاسكندرية، فلما وصل النبأ بفوز الدكتور محجوب ثابت عمت موجة من الفرح والاغتباط، وفى مساء اليوم التالى اكتظت محطة القاهرة بالجموع التى هرعت لاستقبال الرجل الذى أفنى حياته فى خدمة الجماهير وعندما اندفع العمال لحمله على أعناقهم، اعترض وقال بصوته المدوى: لا.. لا.. أنا لا أحمل على الأعناق.. إنما يحمل على الأعناق الصريع.. أما أنا فلا أحمل إلا بعد موتى.. ومادام فى عرق ينبض.. فلا».. وهنا تقدم منه الأستاذ عبدالرحمن الجويلى موفدا من قبل سعد زغلول، وأبلغه أن الزعيم يستدعيه لمقابلته حالا.. وذهب محجوب ثابت إلى لقاء سعد فى بيت الأمة وذهبت الجماهير فى إثره وهى تنادى عاوزين الدكتور محجوب.. وانتقل سعد إلى مجلس النواب وبرفقته محجوب ثابت، فاستقبله الأعضاء بالتصفيق الشديد.. وانساق معهم الزائرون وكأنه قد أعدوا حفلة لاستقبال النائب الجديد.. حتى يقال أن سعد لم ير أكثر مرحا ولا أوفر انشراحا منه فى تلك الليلة.. وكذلك كان شعور الأعضاء كأنه كان ينقصهم شئ فاستكملوه بانضمام الدكتور محجوب إليهم..

وفى أول جلسة حضرها محجوب ثابت كان المجلس ينظر فى ميزانية وزارة الدفاع الوطنى، وكان أحد النواب يتكلم عن الجيش وعن التجنيد، فإذا بالدكتور النائب البكر ينتزع الكلمة من النائب المتكلم، ويلقى خطبة رنانة مدوية، وإذا بسعد يوجه كلامه إلى النواب مداعبا الدكتور محجوب بقوله: «أول ماشطح نطح».. قالها والفرح يتجلى فى أسارير وجهه..

محبوب من الجميع

وخاض الدكتور محجوب ثابت حقل السياسة من أوسع أبوابه، وهو باب الجماهير المصرية فى حركتها الفوارة.. وسعيها الدائب نحو الحرية والاستقلال والعدل، فلم يستفيد بالانتماءات الحزبية - رغم انتمائه القديم للحزب الوطنى - وظل مستمسكا بالمبادئ العليا التى قامت عليها النهضة الوطنية الحديثة، وازداد نفوره من الأحزاب بعد أن دبت بينها الصراعات والمنافع الشخصية، وصار العمل السياسى وسيلة للمتاجرة والاثراء، والغريب أن محجوب ثابت ظل محببا إلى كل الفيالق الحزبية رغم عنفه فى نقدهم، ونقمته على تصرفاتهم، وكان الزعماء على اختلاف نزعاتهم يقدرون للرجل سبق جهاده، وصدق وطنيته، وطهارة يده، ونزاهة البواعث التى ينطلق منها، ويتقبلون برحابة صدر غضباته التى كانت تأخذ شكل خطب نارية، ومقالات ملتهبة، وما أن يجتمع الشمل فى صالة «صولت» أو «بار اللواء» أو مكتب صديقه الحميم داود بركات رئيس تحرير الأهرام، حتى يخبو الخلاف، وتصفوا

النفوس، وتنطلق ربات الشعر من خدورها، ويلقى كلٌ بما فى جعبته من روائع العلم والأدب.

كان الدكتور محجوب ثابت قريبا من طوائف الشعب: العمال والطلاب والموظفين والبسطاء الذين وجدوا فى نشاطه السياسى صدى لآمالهم ومعاناتهم.. أما العمال فجعلوا منه زعيما بعد أن جعل من نفسه أمينا على حقوقهم، مطالبا برفع مستواهم. وخيل لسلطات الاحتلال البريطانى أن تجعل منه أداة لتطويع الحركة العمالية وتجنيدها لمسايرة الاحتلال، وفى عام ١٩٣٠ اجتمع به مستر «جريفز» وكان مديرا لمكتب العمال فى مصر، وأخذ يساومه على القيام بهذه المهمة. مستغلا عسره المادى بعد أن تبخر رصيده فى البنك، وكان كل ما استطاع جمعه من إيراد عيادته مبلغ ألفين من الجنيهات، أنفقها على العمل الوطنى، ونفذ الانجليزى الخبيث إلى أذن الرجل من هذه الثغرة، وأخذ يغريه بتسديد ديونه، وإعطائه إعانة دائمة، وتعيينه فى وظيفة حكومية مع إعفائه من قيودها الحكومية، وأن تتعهد الحكومة بتحويل العمال والموظفين للعلاج فى عيادته حتى يدب فيها النشاط وينمو دخله، وظل الدكتور محجوب يستمع إلى العرض السخى، حتى اذا فرغ «جريفز» من إغراءاته، قال له الدكتور محجوب:

- سمِّنى وكيلا أو نقيبا أو مرشدا أو محاميا للعمال، المهم أننى أصبحت موضع ثقتهم، وأمانة الوكيل تقضى عليه أن يعمل لمصلحة موكليه، وإلا.. كان غير أمين ولانزيه... بل يكون ميت الضمير... فيا مستر جريفز أنا أطلب سن تشريع للعمال يحميهم من الشركات

وأصحاب رؤوس الأموال.. تشريع يكفل لهم المعاش بعد أن تتقدم بهم السن، وتعويض العامل إذا أصيب بعاهه أثناء العمل، ويلزم أصحاب الأعمال بأن يصرفوا للعامل لباسا خاصا (العفريتة) لوقايتهم من خطر الآلات ويحتم على أصحاب المصانع معالجة العمال.. هذا هو الذى أطلبه لمن نصبونى عليهم زعيما ومدافعا.. أما ما تعرضه علىَّ من معاونة، فانى فى غنى عنها، ولا يصح أن تأتى هذه المعونه على حساب العمال.. ومع ذلك فإن الذى لاتنفذونه اليوم من المطالب العادلة، ففى سبيله سأقف منكم موقف المقاوم، وسأخاصم الجهة التى أطلب منها حقوق العمال اذا تمنعت عن تنفيذ مطالبى العادلة، وإذن ليس من الأمانة يامستر جريفز أن يقبل مثلى أية معونه تجئ من الحكومة فى أية صورة أو بأية طريقة ومهما تلكأت الحكومة أو أهملت، فإنها حتما ستنفذ هذه المطالب عاجلا أو آجلا.. أما أنا.. فلن ألوث هذه اليد بمال حكومى غير مشروع.

يقول كاتب سيرته صالح على عيسى السودانى أن جريفز خرج يقول: لم أر فى مصر رجلا قابضا على مقود الزعامة وهو محل الاجلال والإحترام والثقة من الجماعة التى يتزعمها مثل الدكتور محجوب ثابت.. ويعلق السودانى على مقولة جريفز بقوله: فما أعجب هذا الخلق الانجليزى.. إنهم يحتضنون من يتساهل فى حقوق بلاده لحسابهم ويملأون يده بالمال، ولكنهم فى نفس الوقت يحتقرونه، ويحترمون المخلص لبلاده ويجلونه.. ولو أنهم يحاربونه إلا أنهم يوقرونه فى داخل نفوسهم لوطنيته.

●● ووصلت أزمة الدكتور محجوب ثابت المالية، وملاحقة أصحاب الديون له، إلى مسامع صديقه القديم إسماعيل صدقى باشا، الذى صار رئيسا للوزراء عام ١٩٣٠، فدفعته عاطفة الوفاء إلى انتشاله من عسرته، ولم يجد صدقى عنده من وظائف الحكومة سوى وظيفة طبيب بجامعة فؤاد، وكان مرتبها ضئيلا لا يتناسب مع مكانة الرجل العلمية والأدبية، وتعفف محجوب عن قبول الوظيفة، ولكن صديقه داود بركات كان يعرف حقيقة أزمته بعد أن تبددت أمواله، وخف نشاط عيادته، ولكى يضعه أمام الأمر الواقع، بادر بنشر الخبر فى «الاهرام» حتى يقطع عليه سبيل الرفض. ورضى محجوب بهذه الوظيفة الهزيلة بعد أن رأى فيها وسيلة للاتصال بزهرة شباب الوطن، والعمل على إنشاء جيل جديد سليم الجسم والعقل، فكان ينتهز فرصة توقيع الكشف الطبى على الطلاب فيناقشهم ويناصحهم ويوجههم الوجهة التى يراها مناسبة لاستعدادهم النفسى والجسمانى، فإذا وجد طالبا يتمتع بلياقة بدنية قوية ويريد الالتحاق بكلية التجارة، نصحه بالالتحاق. بالكلية الحربية فإذا علم أن الكلية الحربية اكتفت بالمقبولين ذهب بنفسه إلى هناك ليجد لتلميذه محلا فيها.. ولا يهدأ له بال إلا إذا انتظم كل طالب فى الكلية التى تلائم طبيعته واستعداده، وإذا وجد طالبا معسرا عاجزا عن دفع المصروفات، عمل كل ما فى وسعه لحل أزمته.

وكان محجوب ثابت أول من نادى بضرورة التدريب العسكرى لطلاب الجامعة. ولم يسكت حتى استجابت الجامعة لدعوته، وأصبح هو

ضابط اتصال بين المدربين العسكريين الضباط الاحتياطيين الجامعيين، وبين الجيش، وإليه يرجع الفضل فى إنشاء الوحدات العلاجية للطلاب، وامتدت هذه الرعاية إلى الطلاب خارج الجامعة. كما كان يرافق الطلاب إلى زيارة المستشفيات والسجون والإصلاحيات، ويشرح لهم من خلال استجواب المساجين الحالات المتباينة من طبائع المجرمين، والفرق بين حالة المجرم بطبعه، والمجرم الذى يرتكب الجريمة اضطرارا.

وهو أول من دعا إلى إنشاء جامعة فاروق بالاسكندرية حتى تحقق حلمه فى عام ١٩٤٢.

[قل: موافقون]

●● وكان الدكتور محجوب ثابت إلى جانب اهتماماته العلمية، ضليعا فى فقه اللغة العربية، وانضم إلى مجمع الخالدين(مجمع اللغة العربية) عام ١٩٣١ عضوا فى لجنة المصطلحات الطبية، وحدث فى أول جلسة أن أراد أحد الأعضاء المتخذلقين أن يتندر على الرجل، فزعم أن سبب اختياره فى المجمع انما يرجع إلى صداقاته بالزعماء والحكام، وليس إلى مكانته العلمية، فاستنكف محجوب ثابت أن يفند هذه المزاعم لحقارتها.. وأفاض على القوم من علمه الغزير بدقائق اللغة وأسرارها، وأخذ يربط بين اللغة العربية والمصطلحات الطبية حتى انبهر الأعضاء بسعة اطلاعه، وشعروا أنهم تلاميذ فى حضرة معلم قدير، وما لبثوا أن جعلوه رئيسا لهذه اللجنة ، فسخر جهده لازالة الصدأ الذى تراكم على اللغة، وتطهيرها من التحريف.

وفى إحدى جلسات مجلس النواب، وبينما هو يخطب، اعترض أحد الأعضاء على كلمة وردت على لسانه منكرا صحتها اللغوية، وعندئذ خرج محجوب على سياق الموضوع الذى كان يتكلم فيه، وتصدى لما قاله العضو، وتحولت الجلسة الى مساجلة بلاغية اختتمها محجوب بتوجيه الكلام إلى خصمه قائلا: اللغة بحر خضم تغرقك أمواجه، وتبتعلك حيتانه، على أنك إذا حاولت أن تصحح اللغة لمحجوب.. فانك عن اللغة لمحجوب.. فتفضح نفسك، وتكشف عن جهلك، وتكون أشبه الناس بمن نزل البحر ليبارى السباح الماهر فغرق، فنصيحتى لك ألا تعود إلى مثلها.. قل: موافقون!!

وضجت القاعة بالضحك.

وطنية الأقباط

ويعتبر الدكتور محجوب ثابت من أشد دعاة الوحدة الوطنية، وقد عاصر المواقف الخالدة التى وصلت فيها الوحدة الوطنية إلى ذروتها أثناء ثورة ١٩١٩. وبقيت مبدأ ساميا عمل الرجل من أجله طوال حياته. وكان يغضب غضبة عارمة إذا شعر بأى مساس لهذا المبدأ. يروى صالح السودانى أنه كان معه عندما دخل عليه شاب أرعن يرتزق من العمل السياسى ويتكسب من الدقيقة بين زعماء الأحزاب، ليبتز أموالهم. وكانت بعض الصحف تشن حملات ضارية على الدكتور محجوب. وحاول هذا الشاب أن يوهم محجوب ثابت بأن الأقباط هم الذين يحرضون عليه الطلاب للنداء بسقوطه، وأنهم يغذون الصحف بالاخبار

الكاذبة للنيل من سمعته، وتنبه الرجل إلى خبث الواشى.. فتوجه إليه قائلا:

- إنى لا أقبل أن تنكر على الأقباط وطنيتهم.. إبعد عن هذا الطريق يافتى.

ولكن الفتى الخبيث لم يتوقف عن نفث سمومه وترويج وشايته وعندئذ قال له محجوب ثابت: تلك نغمة فى أذنى تشبه نعيب البوم، ونعيق الغربان، ونباح الكلاب، وعواء الذئاب.. هذا كذب يابنى.. إننا إن فاخرنا بعروبتنا، فالأقباط أخوال العرب.. ألم تسمع وصف «شوقى» لقناة السويس: «هنا وضع للنبوة المهد، وابتدأ بها العهد، فأقبل صاحب المقام ومحطم الأصنام، وبنّاء البيت الحرام، خليل ذى الجلال والاكرام، هاجر من مصر أكرم من هاجر، وانقلب بأم العرب هاجر» ألم تقرأ هذايا شاب.. إذن فما هذه النغمة الكريهة، إن كنا نفاخر بأننا أبناء الفراعنة فالأقباط هم أبناء الفراعنه، واذ كنا نفخر بعروبتنا فهم إخواننا.. إسمع ياهذا.. كيف تبيح لنفسك أن تنقل إلىّ هذه الوشاية؟ «لمبلّغك الواشى أغش وأكذب».. أنا لا أفرق بين الشيخ والقسيس.. بل أحتقر كل مسلم يطعن فى الأقباط، احتقارى للقبطى الذى يردد هذه النغمة من جانبه.. أنسيت ياهذا وطنية سينوت حنا ومرقص حنا.. ونجيب اسكندر والقمص سرجيوس وخطبه فى الأزهر التى كانت ردا مفحما لما زعمته الجرائد الانجليزية، وقتئذ من أن الاقباط لا يناهضون الاحتلال؟ فما هذه النقمة المحجوجة إنى أعتبر كل من يردد مانقوله متاجرا بالدين، وهو لا يعرف الدين ولا يتصل به بسبب ولا نسب.. ولقد لاحظت أن الذين

يرددون هذه النغمة لا يدخلون مسجداً، ولا يغشون كنيسة لأداء الشعائر الدينية.. فكل متحدث بها يجب أن يكون موضع احتقار الجميع..»

وتفاصيل هذا الحوار بين محجوب ثابت، والواشى الخبيث طويلة.. ومليئة بالعير.. وشغلت صفحات كثيرة من كتاب (الأسرار السياسية لأبطال الثورة المصرية وآراء الدكتور محجوب ثابت) لصالح على عيسى السودانى.

مكسوينى فى شعر شوقى

●● وقد ارتبطت شخصية الدكتور محجوب ثابت بشخصية الحصان الذى كان يستخدمه فى تنقلاته فى شوارع القاهرة أو الذهاب إلى الجامعة، وكان هذا الحصان موضع تندر كبار الأدباء والشعراء ومنهم أحمد شوقى وحافظ ابراهيم والشيخ عبدالعزيز البشرى الذى أطلق على هذا الحصان اسم «مكسوينى» وهو اسم بطل أيرلندى مشهور أصابه الهزال من الجوع فمات منتحرا.. وقيل إن حصان الدكتور محجوب كان محروما من الطعام طوال الليل أثناء سهرات صاحبه فى النوادى.. فصعد إلى تلال زينهم، وألقى بنفسه من قمة التل فمات بينما قال الدكتور محجوب أن حصانه راح ضحية الهوى والغرام، ذلك أنه كان يهوى إنثى من نوعه تملكها صاحبة عربات كارو فى تلال زينهم، وأثناء لقاء العاشقين زلت أقدام العاشق فهوى إلى القاع ميتا.. وقال أمير الشعراء: إن مكسوينى غضب عندما اقتنى الدكتور محجوب سيارة أمريكية ماركة (اوفرلاند) بدلا من الكارتة التى كان يجرها الحصان.. فأخذ يعدو من إسطبله بالبغالة حتى صعد إلى اسطبل زينهم وألقى

بنفسه من حالق.. وقد صاغ أحمد شوقى مأساة (مكسوينى) فى قصيدة طويلة أشار فيها إلى الشيخ (حلمى طمارة) الذى كان إمام بالسفارة المصرية بواشنطون، وإلى (شارلبوت) أى شارل شابلن.. وإليك بعض أبياتها:

لكم فى الخط سيارة حديث الجار والجارة
(أوفرلاند) ينبّيك بها القنصل (طمارة)
كسيارة (شارلبوت) على السواق جبارة
إذا حركتها مالت على الجنبين منهارة
وقد تحرن أحيانا وتمشى وحدها تارة
أدنيا الخيل (يامكسى) كدنيا الناس غدارة
لقد بدّلك الدهر من الإقبال إدباره
فصبرا يافتى الخيل فنفسى الحر صبّاره
أحق أن (محجوبا) سلا عنك بفخّاره
وباع الأبلق الحر (بأوفرلاند) نعّاره
ولم يعرف لك الفضل ولا قدر آثاره

ومن القصائد البديعة التى كتبها أمير الشعراء أحمد شوقى تلك الأبيات عن البراغيث التى كانت تهاجم كل من يتردد على عيادة الدكتور محجوب، وترتوى بدماء الضيوف والمرضى:

براغـيثُ مـحـجـوبٍ لم أنْسـهـا
ولـم أنس مـا طَعِـمتْ من دمى

تشق خـراطيـمـهـا جـوْربى
وتـنـفـذُ فـى الـلحم والأعـظُـم

وكـنـت اذا الـصـيـف راح
احـتـجـمت فـجـاء الخـريف فلم أحـجـم

ترحب بالـضـيـف فـوق الطريق
فـبـاب العـيـادة فـالسُلَّم

قـد انتـشـرتْ جـوقـةً جـوقـةً
كـمـا رُشَّت الأرضُ بالـسـمـسـم

وتـرقـص رقـص المـواسـى الحِـداد
عـلـى الجـلد، والـعَلَـقَ الأسْـحـم

●●●

رحم الله أمير الشعراء.. ورحم الله محجوب ثابت.. وكل عظماء ذاك العصر الثرى بكل ما هو جميل ونبيل، ولقد كتبت هذا الفصل وفاء لذكرى سنوات عزيزة عشتها فى حى العجوزة فى شارع يحمل اسم الدكتور محجوب ثابت.. وما كان أقل الناس الذين يعرفون قدر هذا الرجل.

ليلة مصرع أحمد ماهر

فى أوائل السبعينيات كنت أتردد على مقهى شهير بميدان التحرير برفقة أخى وصديقى الصحفى اللامع الأستاذ عبدالوهاب مطاوع حيث يمتد بنا السهر إلى الساعات الأولى من الصباح، وكانت السهرة تضم كوكبة من رجال الأدب والفكر والسياسة، ورغم فارق العمر بيننا وبينهم، إلا أننا كنا نجد متعة كبيرة فى الجلوس إلى هؤلاء المخضرمين، نسعد بأحاديثهم الطلية، وذكرياتهم الشيقة، وخبراتهم العميقة، وكل ذلك كان يضيف إلينا زادا فكريا، ومعلومات هامة كان من الصعب الحصول عليها من غير أبطالها الأحياء.

وكان من نجوم هذه السهرة: الصحفى الكبير «محمد نجيب» الذى قضى حياته الصحفية فى معظم الصحف التى صدرت فى فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، واختتمها فى أخبار اليوم ثم الأهرام

قبل أن يتقاعد ويصبح من رواد السهرة الممتدة إلى أن يأتى ابنه - المستشار محمد فتحى نجيب - نائب وزير العدل حاليا، ليصحب أباه إلى البيت، وكان المرحوم محمد نجيب خزانة معلومات عامرة بالذكريات التى توافرت لديه من خلال نشاطه السياسى. فقد كان من أنصار الحزب الوطنى القديم - حزب مصطفى كامل ومحمد فريد - كما كان على بينة من الأحداث الجارية بحكم عمله الصحفى، حين كانت الصحف منتديات يتردد عليها رجال السياسة والأدب، وقد جمع بعض هذه الذكريات فى كتاب عنوانه (شخصيات وذكريات فى السياسة المصرية) أهدانيه قبل رحيله ولاتزال ذاكرتى تحتفظ ببعض حكاياته ومنها قصته مع المحامى الشاب محمود العيسوى الذى أطلق النار على رئيس الوزراء المرحوم أحمد ماهر باشا فى البهو الفرعونى بمقر مجلس النواب يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٥ احتجاجا على قيام ماهر باشا بإعلان الحرب - باسم مصر - على دول المحور.

كان العيسوى يتردد على مكتب محمد نجيب بالأهرام، ضمن بعض رجال الحزب الوطنى وغيرهم من رجال السياسة حيث يدور الحديث والسمر ومناقشة قضايا الساعة.. ومنها بالطبع مسألة إعلان الحرب على ألمانيا، وكان الرأى العام فى مصر بين مؤيد ومعارض. وكان ماهر باشا قد تبنى الفكرة فى السنوات الأولى من الحرب وحجته فى ذلك أن انضمام مصر إلى الحلفاء - رسميا وعمليا - سوف يتيح لجيشها فرصة التدريب على المعارك الكبرى، وتسليح الجيش المصرى بأحدث المعدات القتالية، ولكن الفكرة لم يكتب لها النجاح بسبب شدة التيار المناوئ للاحتلال البريطانى. فلما أوشكت الحرب على نهايتها، وتولى

أحمد ماهر رئاسة الوزارة فى أكتوبر ١٩٤٤، عمل على إحياء المشروع رغم أنه كـان شكليـا. وإنما كـان الهـدف منه حـضـور مـؤتمر سـان فرانسيسكو الذى كان يمهد لقيام هيئة الأمم المتحدة على انقاض عصبة الأمم التى تفككت عند إعلان الحرب. والاحتفاظ بحق مصر فى مقعد فى المنظمة الدولية. أما المعارضون للمشروع فحجتهم أن انضمام مصر إلى الحلفاء - ولو شكليا - يربطها بعجلة بريطانيا فى وقت كانت الحركة الوطنية تتطلع إلى الاستقلال وجلاء القوات البريطانية عن مصر.

●● كـان هذا هو حـديث الساعـة يدور بين المتـرددين على مـكتب مـحمد نجيب بالأهرام ومن بينهم هذا الشاب - مـحمود العيسوى - الذى كان يتقد حماسة ضد مشروع أحمد ماهر. وكـان يأتى بصحبة بعض الكبـار من رجـال الحـزب الوطنى إلى أن ارتكب حـادث الاغـتـيـال، وعرف مـحمد نجيب أنه نفس الشاب الذى يتردد عليه. فـأدرك على الفور أن التحقيق لابد أن يشمل كل من له صلة بالشاب القاتل حتى لو كان مجرد الجلوس البرئ.. وهو ما حدث بالفعل عندما استدعاه رئيس تحرير «الأهرام» فى اليوم التالى لوقوع الجريمة، وأبلغه أن النائب العام يطلبه إلى التحـقيق، وأن اثنين من ضبـاط القلم السيـاسى حضـرا إلى مكتبه لهذا الغرض ولم يتبادر إلى ذهن مـحـمد نجيب إلا أن أجـهزة التحقيق قد عرفت بما دار خلال السهرة التى تمت فى مكتبه قبل ٤٨ ساعة من وقوع الجريمة، ولابد أن أحد المشبوهين قد تطوع وأبلغ رجال القلم السياسى أن خطة الجريمة قد رسمت فى تلك السهرة التى كانت تضم خليطا من ذوى الميول المتطرفـة فى نظر الأمن السيـاسى، ومن بينهم محمود العيسوى.. فما هى قصة هذه السهرة؟

يقول محمد نجيب فى مذكراته: كان مكتبى فى جريدة «الأهرام» يزخر مساء كل يوم بالزوار من الأصدقاء والزملاء الصحفيين لقضاء السهرة معى.. وكانت تمتد إلى مابعد منتصف الليل بساعتين أو أكثر، وهكذا كانت تقضى حالة الحرب، فقد كان (بار اللواء) الذى يضمنا جميعا، ويكاد يكون ناديا خاصا، يغلق أبوابه فى العاشرة بأمر الحاكم العسكرى، على أن هذه الحالة التى زالت بانتهاء الحرب، لم يكن لها أى تأثير فى سهرتنا، بل استمرت على ما هى عليه، وفى مساء الخميس ٢٢ فبراير ١٩٤٥ أقبل بعض رواد السهرة ومنهم الأستاذ عبدالمنعم الشريعى، وهو رجل درس الحقوق فى فرنسا، وذو ميول اشتراكية مع أنه من الموسرين وينتمى إلى أسرة الشريعى العريقة فى المنيا، وأقبل الدكتور حسن نور الدين ويصحبته المحامى الشاب محمود العيسوى، وكان منتميا إلى الحزب الوطنى ويتردد على مكتبى بين وقت وآخر، ليطلب منى نشر خبر أو بيان من بيانات الحزب الوطنى، وكان الدكتور حسن نور الدين من أقدم أعضاء الحزب الوطنى، وكان عضوا فى الجماعة الفدائية التى قام أحد أعضائها باغتيال رئيس الوزراء بطرس غالى باشا فى فبراير ١٩١٠ - وهو ابراهيم الوردانى - وكان أعضاء هذه الجماعة متفقين فيما بينهم على أن يقوم بعملية الاغتيال من تقع عليه القرعة من بينهم، وأصابت القرعة شابا غير الوردانى، ولكن الوردانى اعترض على القرعة، وأصر على أن يقوم هو بالجريمة وتمسك برأيه فأذعن له زملاؤه.

ولا ينسى محمد نجيب أن يؤكد استنكاره للاغتيال السياسى لأنه لا يحقق أى هدف سوى أن مرتكبه يخلع على نفسه صفة المدعى العام وصفة القاضى وصفة الجلاد - فى وقت واحد - دون أن يتيح للضحية فرصة الدفاع عن نفسه وإبداء وجهة نظره .. وتلك شريعة الغاب ..

أما حسن نور الدين فقد اعتقل ونفى إلى مالطة خلال الحرب العالمية الأولى، ثم عاد إلى وطنه مع أمثاله العائدين، وما لبث أن سافر إلى بلجيكا حيث أتم دراسة الطب، وكان شعلة متقدة من الوطنية لم يخمد المنفى جذوتها. وكان يتردد على السهرة وبصحبته المحامى الشاب محمود العيسوى. ودار الحديث بين الجالسين حول اعتزام ماهر باشا إعلان الحرب على ألمانيا، وانتهت السهرة حوالى الساعة الثالثة صباحا، وانصرف كل منهم إلى منزله باستثناء المحامى محمود العيسوى فقد صحبه الدكتور حسن نور الدين إلى منزله فى الحلمية الجديدة. وتبين فيما بعد أنه الوحيد الذى كان على علم بما ينتويه العيسوى.

هل تعرف القاتل؟

يقول محمد نجيب: وفى مساء السبت دق جرس التليفون فى مكتبى لأتلقى نبأ مزعجا وهو أن شابا أطلق الرصاص على أحمد ماهر باشا فى دار البرلمان، وأن حالته خطيرة جدا.. ثم توالى زنين التليفون، وتوالت الأخبار، فكان أشدها إزعاجا لى أن هذا الشاب من شباب الحزب الوطنى، وأن رئيس الوزراء مات متأثر من جراحه، وعلى قدر حزنى على وفاة أحمد ماهر لأنه فى وقت ما كان من المجاهدين

الأحرار، حزنت على مصير هذا الشاب، وكنت لم أعرف اسمه بعد، وماكدت أعرف أنه «محمود العيسوى» حتى تضاعف حزنى، وكادت الدماء تتجمد فى عروقى، ذلك لأن محمود العيسوى هو المحامى الشاب الذى كان يصحب الدكتور حسن نور الدين فى سهرة الخميس. وكنت أعلم أنه من أذكى الشباب وأشدهم حماسة. وأكثرهم غيرة على مصلحة بلادهم، ثم أنه على صغر سنه (٢٣ سنة) استطاع الحصول على دبلومين بعد ليسانس الحقوق، ولم يبق أمامه إلا وقت قصير ليحصل على الدكتوراه، بالإضافة إلى أنه كان يتمتع بأخلاق كريمة يندر أن يتمتع بها الشباب فى ذلك الوقت.. فمثلاً كنت أتردد على محل بقال، وكان يتردد عليه معى، فما كاد صاحب هذا المحل يرانى بعد الحادث، حتى فاجأنى بقوله: هل تعرف أن الشاب الذى قتل أحمد ماهر كان مدينا لى بمبلغ بسيط، وجاء إلى الدكان يوم الخميس - السابق على الحادث - ولم أكن موجودا.. فترك لى مظروفا يحتوى على قيمة هذا الدين، مستدلا بذلك على أنه لابد أن يكون قد اعتزم الغياب مدة طويلة، فقلت: وأى غيبة؟ أنها الغيبة التى لا عودة بعدها.. (!!).

● وبعد أن تلقى محمد نجيب طلب المثول أمام التحقيق، هرع إلى مكتب الأستاذ عبدالمقصود متولى المحامى - ومن أقطاب الحزب الوطنى - ليسترشد برأيه، فوجد المكتب مغلقا وأنه مقبوض عليه، لأن العيسوى كان يعمل محاميا فى مكتبه عقب تخرجه، فتوكل نجيب على الله وذهب إلى مكتب النائب الذى أحاله على أحد رؤساء النيابة، وما أن جلس إليه حتى دبت الطمأنينة فى قلبه، فقد كانت تربطه به صداقة، ومن المترددين على مكتبه ويعلم ميوله السياسية، وقال له رئيس النيابة: إحنا عايزين منك كلمتين

اثنين.. وصغيرتين جدا.. هل كنت تعرف كلا من العيسوى، والأستاذ على على منصور المحامى، فأجاب بأنه يعرفهما، وأنهما يترددان على مكتبه فى «الأهرام» لنشر أخبار عن الحزب الوطنى الذى ينتميان إليه.. وكانت الشبهات تدور حول المحامى على منصور بسبب أنه من زملاء العيسوى فى لجنة شباب الحزب الوطنى.. ولكنهما كانا على خلاف مستمر، واستشهد منصور بالصحفى محمد نجيب الذى شهد بصحة هذا الخلاف الذى رأى فصولا منه بسبب نشر أخبار الحزب، وبانتهاء شهادته سمحت له النيابة بالإنصراف، وهو فى دهشة من أمره، ذلك أن التحقيق لم يتطرق إلى سهرة الخميس التى سبقت الحادث بـ ٤٨ ساعة (!!)

الثعلب يتخفى مع الجمال

●● يقول الصحفى محمد نجيب فى ذكرياته: عدت إلى مكتبى فى «الأهرام» ورويت لرئيس التحرير القصة كاملة، وحمدت الله على أن نبأ سهرة الخميس لم يصل إلى البوليس السياسى.. وإلا.. كان قد ألقى القبض علينا جميعا حتى تثبت براءتنا بعد يوم.. بعد عشرة.. بعد شهر.. بعد ثلاثة.. الله أعلم.. فقد كانت الأحكام العرفية قائمة، واعتقل بمقتضاها عدد كبير من شباب الحزب الوطنى وعدد من رجاله من بينهم الأستاذ عبدالمقصود متولى والدكتور حسن نور الدين، ومن هنا كنا جميعا نخشى تسرب نبأ سهرتنا إلى البوليس السياسى، وكنا نعمل بحكمة الثعلب الذى اندس بين الجمال للهرب معهم.

وحكاية هذا الثعلب حكاية طريفة تتلخص فى أن السلطة العسكرية البريطانية أمرت فى أثناء الحرب العالمية الأولى بجمع الجمال لاستخدامها

فى أعمال النقل الحربى فى سيناء وفلسطين، وكانت الجمال تخشى هذه الأعمال، فاستقر رأيها على الهرب إلى الصحراء، فاندس بينها ثعلب فسأله جمل: لماذا تهرب معنا وأنت ثعلب ولست جملا؟ فقال الثعلب فى دهاء: إن القائمين بعملية الجمع لايفرقون بين الجمل والثعلب، فإذا أخذونى على أنى جمل، فسيكسر ظهرى حتى أثبت لهم أنى ثعلب ولست جملا.. ومن أجل هذا فضلت الهرب واندسست بين الجمال لكى أوفر على نفسى مشقة إثبات أنى ثعلب ولست جملا.. هذا الإثبات سوف يستغرق وقتا طويلا أقضيه فى حمل أثقال تفوق طاقتى(!!).

الرجل الذى كان يعرف كثيرا

●● هل كان أحد من أصدقاء السهرة الأخيرة يعلم بما كان ينتويه محمود العيسوى بعد ٤٨ ساعة من تلك السهرة..؟ وهل كان أحد منهم قد اشتم من حديثه الساخن أنه مقدم على اغتيال أحمد ماهر؟

يقول محمد نجيب: لم يكن أحد من رواد السهرة يعلم بما فى سريرة العيسوى، وإلا كنا منعناه بأى وسيلة من الوسائل.. إلا شخص واحد كان يعلم ما اعتزمه العيسوى.. أما هذا الشخص فهو الدكتور حسن نور الدين وقد ظل محبوسا على ذمة التحقيق ثلاثة أسابيع، وبعد الإفراج عنه لعدم وجود الدليل أفضى إلى بأنه كان على علم بكل ما اعتزمه العيسوى.. وقد لمته لوما شديدا على أنه لم يكشف لنا هذا السر حتى نقوم بالحيلولة بينه وبين ارتكاب جريمته، وضنا به أن يلتف حول عنقه حبل المشنقة.. وقد ظللت مأخوذا بذلك حتى أفضى لى الدكتور نور الدين بسر خطير آخر، إذ بينما كنا نسير منفردين فى بعض الشوارع، باح لى بأن شابا يعتزم اغتيال الملك فاروق،

وأن هذا الشاب أخبره بأنه وضع خطة محكمة لإغتيال الملك فى «الاوبرج» المكان المفضل لدى فاروق، وانه راقب المكان جيدا ولا ينقصه سوى آلة القتل، وانه يطلب من الدكتور نور الدين أن يمده بالمسدس الذى يقتل به الملك، وبدا لى من المناقشة أن نور الدين لا يعرف هذا الشاب من قبل، وكل ما يعرفه عنه أن الشاب زاره فى بيته وقدم نفسه إليه على أنه فدائى يشتعل حماسة، وينتفض وطنية، ولما كان حسن نور الدين صاحب خبرة عميقة فى الأعمال الفدائية فإنه يطلب منه أن يزوده بمسدس، وكان حسن نور الدين - على فرط ذكائه - يميل إلى تصديق هذه الرواية ويبدو أن إقامته الطويلة فى أوربا جعلته يصدق رواية الشاب دون شك أو تمحيص.. أما أنا - يقول محمد نجيب - فكانت تجاربى من القضايا السياسية التى شهدتها فى المحاكم، تقطع بأن هذا الشاب مدسوس على الدكتور حسن من البوليس السياسى للإيقاع به، بعد أن عجزوا عن إدانته فى قضية اغتيال أحمد ماهر، وأن إطلاق سراحه بعد ثلاث أسابيع فقط من الجريمة، يدل على أن هذا الإفراج العاجل إنما لتدبير مصيدة له، وبعد جدل شديد بيننا، تظاهر حسن بالاقتناع بوجهة نظرى، ولكنه على كل حال بدأ يأخذ جانب الحذر الشديد من الشاب حتى أيقن أنه مدسوس عليه. وأن فكرة اغتيال فاروق الوهمية ليست إلا من بنات أفكار البوليس السياسى.

حاجات ضرورية

ومن المعلومات الغريبة عن شخصية محمود العيسوى مارواه الأستاذ عبدالعزيز الشوربجى، نقيب المحامين الأسبق، وكان من أصدقاء العيسوى إذ يقول: قابلنى محمود العيسوى يوما، وكان سعيدا مبتهجا لأنه تقاضى أول

أتعاب فى حياته من مهنة المحاماة، وقدرها عشرة جنيهات، وبعد أيام التقى الصديقان، وسأل الشوربجى زميله العيسوى عما فعل بالجنيهات العشرة، فقال له انه اشترى بها «حاجات ضرورية».. فلما استفسر منه عن هذه الحاجات الضرورية، أجاب العيسوى: فرقعت فى الهواء مع الأسف الشديد (!!) واستغرب الشوربجى من هذه الإجابة الغامضة، فقال له العيسوى: لقد اشتريت بالمبلغ مواد ناسفة ومفرقعات وضعتها فى مكان ما من فندق مينا هاوس.. فانفجرت.. ولكن للأسف لم تصب الزعيم المقصود اغتياله (!!)

●● وكان هذا الزعيم المستهدف هو النحاس باشا.. وكان العيسوى يريد اغتياله احتجاجا على عقد معاهدة ١٩٣٦.. وشاءت الإرادة الإلهية نجاة النحاس من القتل.. وفرقعت المواد الناسفة فى الهواء.. ولم يشأ البوليس السياسى أن يثير زوبعة حول الحادث،، فزعم أن سبب الانفجار سقوط بعض القنابل التى ألقتها الطائرات المعادية على صحراء الهرم (!!)

قضيـة التلغرافات

مـا أن يذكر اسم الشيخ على يوسف حتى يتذكر الناس قصـة غرامه ثم زواجـه من صفيـة السادات، وهى القصـة التى شـغلت الرأى العـام المصـرى فى السنوات الأولى من القرن العشرين، وتدخلت فيها أطراف من الوزن الثقيل مثل الخديو عباس حلمى الثانى، والمعتمد البريطانى كرومر، وجـهـاز القـضـاء الشـرعى والنيـابة والمحـامين والشـعـراء والسياسيين، بسبب ما أحدثته من دوى وورود أفعال صاخبة ولم تكن «قـضية الزوجية» هى القضية الوحيـدة فى حياة على يوسف وإن كـانت أشـهـرها، فـقـد كـانت حيـاة الرجل سلسلة من القـضـايا والمعـارك شـهـدتهـا سـاحـات المحـاكم ومحـافل السيـاسة والحكم، ورغم أن الشيخ على يوسف لم يكن من أبناء الذوات، إلا أن مـواهبـه الشـخـصيـة وقـدراته

الخاصة دفعت به إلى مركز الصدارة فى مجتمع تسيطر عليه فى ذلك الوقت تقاليد الطبقة الراقية..

يقول عنه أحمد فتحى زغلول باشا: ماعرفت الاقدام أنفذ فى قلب الزمان، مثلما عرفته من على يوسف، ولا أدركت بالحس إلى شأو تبلغ الهمة بصاحبها مثلما شهدت ذلك فيه.. رجل رمت به الأيام فى معترك الحياة وهو وحيد، والجو أقتم، وظلمات الحوادث تتكاثف على الأمة، ساورته الشدائد وهو فى «مؤيده» فشب بنفسه واختط فى الحياة طريقه بذاته، لا معين له من طارف أو تليد، ولا ناصر من أب أو قريب أو نسيب، ولم يكن أولئك الذين يطويهم الزمان فى ثناياه، بل استعصت نفسه الكبيرة على الزمان فقهرته، وكبرت همته على الحوادث فأخضعها، واستقبل الشدائد بعزم وثبات، يخدمهما فكر صحيح، ونظر ثاقب، ورأى سديد فصيرها من عوامل مجده»..

وكانت قضية «التلغرافات» إحدى المعارك التى خاضها على يوسف متحديا جبروت كرومر وطغيانه، وهازئا بالتعليمات التى أصدرتها سلطات الاحتلال الانجليزى لخنق «المؤيد» وهى الجريدة التى أصدرها على يوسف لتكون صوتا معبراً عن جماهير الشعب المصرى، فى مواجهة الأبواق الاستعمارية التى كانت تنطق باسم الاحتلال وتروج له، مثل «المقطم»، وثبت فى المصريين روح الخنوع والاستسلام للاحتلال باعتباره النعمة الكبرى التى جادت بها علينا بريطانيا العظمى(!!)..

وصدرت تعليمات كرومر بحرمان صحيفة (المؤيد) من الأخبار الرسمية حتى يبدو عجزها أمام قرائها، من حيث تستأثر المقطم بهذه الأخبار، فينصرف الناس عن المؤيد إلى المقطم، إلى أن وقعت قضية التلغرافات التى يرويها أستاذنا الدكتور عبداللطيف حمزة فى كتابه أدب المقالة الصحفية، وكشف فيها النقاب عن إحدى معارك النضال الصحفى ضد تعنت الاحتلال الانجليزى، وكيف تحايل الشيخ على يوسف على هذه القيود حتى يفضح خبايا الاستعمار، وتهتك أستاره..

الكوليرا فى السودان

●● فى عام ١٨٩٦ كان وباء الكوليرا قد تفشى فى صفوف القوات المصرية المرابطة فى السودان، وصدرت تعليمات كرومر بحظر نشر أخبار الكوليرا حتى لا يعرف المصريون شيئا عن أبنائهم وما يتعرضون له من ظروف صحية سيئة، وهنا استخدم الشيخ على يوسف دهاءه للحصول على الأخبار من مصادرها الأصلية، وفوجئ كرومر بالمؤيد تنشر نص برقية بعث بها سردار الجيش فى السودان إلى ناظر الحربية يعتذر فيها عن تأخره فى الاتصال بالناظر لأن الكوليرا التى تفشت فى الجيش كانت شغله الشاغل، وأنه لم يتمكن حتى الآن من حصر الوفيات، ونعى إليه وفاة بعض الضباط..

وفى يوم ٢٨ يوليو ١٨٩٦ فوجئ كرومر بما هو منشور فى «المؤيد» فجن جنونه، وهاجت سلطات الاحتلال، وبدأت العيون ترصد مكاتب المؤيد لكشف الوسيلة التى حصل بها على التلغراف ولكنها لم تتوصل إلى شئ، بينما توالى نشر التلغرافات التى كانت تصل إلى المقطم،

وتنشر فى الصحيفتين معا، مما أفقد المقطم ميزة الانفراد، وعندئذ ذهب فارس باشا نمر - صاحب المقطم - إلى مكتب تلغراف الأزبكية، وقدم شكوى إلى رئيس المكتب قال فيها أن مراسل المقطم فى مدينة «ببا» بعث برسالة تلغرافية إلى المقطم، ولكنه فوجئ بها منشورة بنصها فى «المؤيد»..

وتوالت على مكتب تلغراف الأزبكية شكاوى مماثلة، بعضها من صحف أجنبية تصدر فى مصر، وبعضها من صحف مصرية، وعندئذ حامت الشبهات حول موظف يعمل فى المكتب اسمه توفيق أفندى كيرلس، فألقى القبض عليه، ولكن عجزت الحكومة وسلطات الاحتلال عن حمله على الاعتراف بأنه هو الذى ينقل التلغرافات إلى المؤيد، وأدرك كرومر انه لا يستطيع محاكمة الشيخ على يوسف - وحده - لأن المعلومات التى ينشرها صحيحة، وعندئذ تفتقت عبقرية كرومر عن تقديم توفيق كيرلس إلى المحاكمة بتهمة إفشاء أسرار الحكومة، ومعه على يوسف بتهمة اشتراكه فى الجريمة، وفى تحقيق النيابة سئل صاحب المؤيد عن مصدر التلغرافات، فرفض الإجابة لأنه ليس من حق الصحفى أن يكشف عن مصدر أخباره، وسئل عن علاقته بتوفيق كيرلس فقال إنه يعرفه معرفة سطحية، وبذلك أخفقت النيابة فى العثور على دليل لإدانة على يوسف، ولم يبق أمام كرومر إلا أن يفكر فى طريقة واحدة، وهى تهديد توفيق أفندى كيرلس بكل الوسائل الممكنة حتى يعترف بأن صاحب المؤيد هو الذى كان يحرضه على هذا الفعل، وبين هذه الآلام والعواصف المضطربة استضعف توفيق كيرلس، وقبل أن يحرر اعترافا يذكر فيه أن الشيخ على يوسف هو الذى حرضه على

مافعل. ولكن القدر المواتى لصاحب المؤيد ساق هذا الموظف المسكين إلى جريدة «مصر» فقابل بها رجلا من أهل ديانته هو صاحب هذه الجريدة، وقد اشتهر عنه أنه من اعداء المؤيد، وهو تادرس أفندى شنودة، غير أن الزمن أثبت أن هذا الرجل مثال الشرف، فلما عرض عليه كيرلس افندى هذا الأمر اعتدل تادرس افندى فى جلسته وقال لصاحبه:

يجب أن تعلم أن الحق وحده هو الذى يدعو إلى النصر، وأن فيه النجاة من كل شر، فإن كان صاحب المؤيد هو الذى دفعك إلى فعل ما فعلت، فقل عنه آمنا مطمئنا هادئ النفس، فالخير فى ذلك، ما فى ذلك ريب، وإن كان لم يدفعك، وكنت كاذبا فيما تريد أن تعترف به، فلتعلم أنك تقود نفسك إلى الهاوية السحيقة التى يتردى فيها كل رجل يكذب على الناس. فقل الحق لله.. ولا تخف الناس.

أمام القضاء

●● بعد هذه النصيحة اعترف كيرلس افندى أن صاحب المؤيد لم يدفعه وإنه كاذب فيما يريد أن يعترف به، وإنه مدفوع إلى ذلك تحت تأثير تهديدات جبار الاحتلال «كرومر» وأحيل المتهمان الشيخ على يوسف وتوفيق كيرلس إلى المحكمة الابتدائية، وما إن علمت الجماهير بموعد المحاكمة فى ١٧ نوفمبر ١٨٩٦ حتى تدفقت على مبنى محكمة عابدين من أحياء القاهرة القاهرة ومن أنحاء القطر لتشهد أحد فصول الصراع بين الصحافة الوطنية، وسلطات الاحتلال البريطانى، وأشرف حكمدار العاصمة بنفسه على النظام، وترافع على بك توفيق ممثلا

للنيابة العمومية، أما الدفاع عن المتهمين فقد تولاه اثنان من مشاهير المحامين هما: ابراهيم بك الهلباوى، وأحمد بك الحسينى، وقدما إلى هيئة المحكمة دفاعا بليغا جليلا لا سجع فيه ولا بديع ولا تنميق ولا قذف إلا بالحق الهادئ الصريح، وقام دفاعهما على بحوث قانونيه ربما كانت غريبة عن أسماع الناس فى مصر فى ذلك الوقت.. وكان يوما مشهودا فى تاريخ الشعب المصرى انتصر فيه هذا الشعب على السلطان الانجليزى بعد أن أعيت الحيل كرومر فى إدانة الرجل الناطق بلسان أمته إذ ذاك، وهو الشيخ على يوسف، وكان الرأى العام مظاهرا فى هذه القضية للسيد على يوسف مظاهرة قوية، إذ اعتبر نجاح الرجل فيها نجاحا له على رمز الاحتلال فى مصر، والبوق الناطق بلسانه وهو صحفية: المقطم.

الهلباوى يتذكر

وعندما بدأ التفكير فى انتداب الهلباوى للدفاع عن الشيخ على يوسف لم يكن الهلباوى موجودا فى مصر، وإنما كان فى سويسرا، وما إن تلقى طلب العودة إلى مصر للقيام بهذه المهمة حتى لبى الطلب، وعاد إلى الوطن للقيام بهذه المهمة الوطنية الجليلة. وقد أشار الهلباوى فى مذكراته إلى وقائع قضية التلغراف فقال:

«جاءنى رسول خاص إلى جنيف يحمل لى رسالة من شخص لا استطيع مخالفته، وطلب منى العودة إلى مصر لأتولى الدفاع عن الشيخ على يوسف فى هذه القضية الوطنية، فعدت سريعا إلى الوطن مع عائلتى، ومع أنى المنتخب للدفاع عن «المؤيد» وصاحبه، إلا أن أولى

الشأن انتخبوني في هذه المرة للدفاع عن توفيق كيرلس عامل التلغراف، وانتخبوا أحمد بك الحسيني للدفاع عن الشيخ على يوسف. وكانت الجلسة بمحكمة عابدين من الجلسات التاريخية التى ازدحمت فيها الجماهير، حتى أن بعض قاصدى الجلسة دفع لدخوله أجرا يتراوح بين نصف الجنيه والجنيهين للشخص الواحد، وكانت منصة القاضى مشغولة عن يمينه وشماله بكثير من رجال القضاء ورجال النيابة، وكان من بينهم صاحب الدولة المرحوم عبدالخالق باشا ثروت (رئيس الوزراء فيما بعد) مندوبا بصفة رسمية من المستشار القضائى.

ويستطرد الهلباوى فى مذكراته: استعرضت فى مرافعتى تصرفات النيابة، وما فرط من انتهاك حرمات المساكن، وتوجيه أسئلة عرضت للشبهة والمظان السيئة كتصرفها مع والدة وشقيقة توفيق كيرلس، وعند شرح هذه التصرفات قوى عطف الجمهور على المتهمين حتى سالت دموعهم من شدة التأثر، بل لم يستطع القاضى نفسه إخفاء دموعه أيضا، ولما نطقت المحكمة ببراءة الشيخ على يوسف، والحكم على يوسف، والحكم بثلاثة شهور على عامل التلغراف (كيرلس) علا صياح الناس وهتافهم لاستقلال وعدل القضاء.

وكان من وكلاء النيابة العمومية بمحكمة الاستئناف وقتئذ، محمد بك فريد، رئيس الحزب الوطنى فيما بعد، وكان من أكبر الزملاء والأصدقاء المخلصين لثروت باشا، فلم يتمالك نفسه من إظهار سروره بهذا الحكم، ونطق بكلمات أمام مندوب المستشار عدت ماسة بالمستشار، وقد بلغت له لأنها سمعت من كثيرين من الحاضرين، وكان

من أثر ذلك أن قرر المستشار القضائى نقل فريد بك إلى رياسة نيابة بنى سويف، فعدها انتقاما منه لانقلا تقتضيه المصلحة، ورفض تنفيذ النقل، واستقال من وظيفته وكان هذا آخر عهده بخدمة الحكومة.

«واستأنفت النيابة حكم البراءة، كما استأنف توفيق كيرلس حكم العقوبة، وترافعنا أمام محكمة الاستئناف، وكانت الجلسة برئاسة على باشا ذو الفقار، وبعضوية المستشارين: المستر كمرون الانجليزى، ويوسف بك شوقى، وأجل الحكم إلى ما بعد المداولة، وكان الجمهور يملأ ساحات المحكمة الداخلية ويحيط بجوانبها من كل جهة، وطالت المداولة على غير العادة عدة ساعات، وخرجت المحكمة بتأييد الحكم الابتدائى، وعند النطق بالحكم لم يستطع المستر كمرون إخفاء غضبه حتى تبين كل انسان فى وجهه أنه لم يكن موافقا على حكم البراءة، ولم يمض يومان حتى عرف ما دار بينه وبين زميليه فى غرفة المداولة، اتهما بأنه إذا حكم ببراءة الشيخ على يوسف لتوصيات جاءتهما على يد محمود باشا شكرى رئيس الديوان التركى يومئذ بالمعية السنية، وحذرهما من نتائج إصرارهما على هذا الرأى، فلم يرهبهما هذا الوعيد، ونطقا بحكم البراءة، وقد تحققت هذه الاشاعة، ونفذ هذا الوعيد لما طلب لورد كرومر من رئيس الوزراء مصطفى باشا فهمى أربعة مستشارين جدد من الانجليز محتجا بأن العدد الموجود منهم فى الاستئناف غير كاف لضمان العدالة واستقلال القضاء (!!).

وفى تعليق الدكتور عصام ضياء الدين على هذه الفقرة من مذكرات الهلباوى يقول: يؤكد محمد فريد أن القاضى الانجليزى (كمرون) احتد

على القاضيين الوطنيين، واتهمهما بأنهما حضرا الحكم قبل الجلسة بإيعاز من الخديو عباس، واشتد الخلاف حتى امتنع الانجليزى عن حضور تلاوة الحكم، ولولا حضور بليغ باشا رئيس الاستئناف - لظهر الأمر فى يومها، لكنه وقف بينهم، واقتنع الانجليزى بضرورة الانصياع للأغلبية، فخرج، وحضر التلاوة رغم أنفه.



سـجين الحريـة

عجيب حظ هذا الرائد الصحفى.

كان اسمه يدوى فى جميع أنحاء الديار المصرية طوال العقد الأول من القرن العشرين كان الناس يتلهفون على قراءة مقالاته النارية ضد الإحتلال، وكانت نفوسهم تتفجر غيظا ونقمة وهم يقرأون له تفاصيل تنفيذ أحكام الإعدام فى ضحايا «دنشواى».. ويستجيبون لدعوته بإصدار الدستور ويجمعون له ٧٥ ألف توقيع على عريضة تطالب الخديو عباس حلمى الثانى بالدستور، ويتابعون نضاله على صفحات «اللواء» الى جوار زعيم الوطنية الشاب، مصطفى كامل، ثم على صفحات جريدته، «القطر المصرى» وتهفو إليه قلوبهم وهو حبيس السجن ثمنا لجرأته، فكان أول مصرى يسجن بتهمة العيب فى الذات الخديوية الفخيمة (...) ورغم هذه الحياة الحافلة بالكفاح الوطنى، فإن المصريين المعاصرين لا يعرفونه إلا من خلال اسمه الذى أطلقوه على محطة ركاب الأقاليم بالقاهرة والشارع الذى يمتد منها شمالا حتى يلامس ترعة الإسماعيلية (!!).

إنه «أحمد حلمى» الكاتب الصحفى الجسور، ورفيق مصطفى كامل وساعده الأيمن منذ صدور «اللواء» فى ٢ يناير ١٩٠٠ وصاحب المعارك الجريئة من أجل الإستقلال والدستور والحكم الديمقراطى والوحدة الوطنية ومقاطعة السلع الأجنبية وتشجيع كل ما هو مصرى.. ورغم هذه الحياة الحافلة بالنضال لم يصدر عن هذا الرجل سوى كتابين: الأول وضعه الدكتور أحمد بدوى فى عام ١٩٥٧ وفى نفس هذه السنة أقامت له نقابة الصحفيين لوحة تذكارية إلى جانب شوامخ الصحافة، أما الكتاب الثانى فقد صدر فى سلسلة تاريخ المصريين وكتبه الدكتور إبراهيم المسلمى أستاذ الإعلام بجامعة الزقازيق، وهو المرجع الذى استندنا إليه فى إلقاء الضوء على تاريخ أحمد حلمى.

ولد أحمد حلمى عام ١٨٧٥ فى حى الحسين بالقاهرة بعد شهور من وفاة أبيه فعاش فى كنف خاله الذى يشغل وظيفة كاتب بوزارة الأشغال فدفع به إلى كتاب فى (خان جعفر) المواجه لمئذنة مسجد الحسين فحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ الحساب والقراءة والكتابة، وهى مؤهلات تكفى للحصول على وظيفة بسيطة تضاهى وظيفة الخال، ولكن الطموحات الكبيرة التى كانت تراود نفس الصبى لم تكن تناسبها هذه الخطة المتواضعة التى رسمها الخال لابن أخته إذ كانت اهتماماته تسعى إلى ما هو أكبر من وظيفة باشكاتب فى ديوان حكومى.

يقول ابنه الأستاذ بهجت ـ وهو والد الفنان الراحل صلاح جاهين ـ أن أباه أحمد حلمى تمرد على خطة خاله فهاجر إلى الإسكندرية مشيا على الأقدام والتحق للعمل بإحدى الشركات الأجنبية حيث تعلم اللغة

الفرنسية كما تعمقت ثقافته الإسلامية - من خلال اختلاطه بعلماء الثغر وتردده على المساجد، وتهيأت له وظيفة فى مركز شرطة دمنهور، ولم يقتنع بهذه الوظيفة الصغيرة فثقف نفسه بقراءة الكتب فى الشئون المالية فالتحق بوظيفة أرقى فى مأمورية سيوة، وبعد نقله إلى القاهرة استطاع أن يشبع هوايته الصحفية بالعمل مراسلا لصحيفة (السلام) التى كانت تصدر بالاسكندرية ويغذيها بأخبار الدواوين الحكومية، حتى إذا أعلن الزعيم مصطفى كامل عن نيته بإصدار صحيفة «اللواء» شعر الفتى أحمد حلمى أنها فرصة العمر، ووجد فيه الزعيم طاقة هائلة، إلى جانب متانة خلقية، ووطنية متأججة، وكانت «اللواء» هى الراية التى التف حولها الوطنيون ووجدوا فيها صدى لما فى قلوبهم من حماسة، ووجد أحمد حلمى فى مصطفى كامل المثل الأعلى والنموذج الكامل للزعيم الذى ينبض قلبه بحب مصر. ولما كان قانون المطبوعات يمنع الموظفين من الاتصال بالصحافة فقد عمل أحمد حلمى فى اللواء ككاتب غير متفرغ إلى أن حصل على إجازة وتفرغ للعمل الصحفى وصار الرجل الثانى فى اللواء بعد مصطفى كامل، وعلى صفحاتها بزغ نجمه وذاع صيته، وصار اسمه يضارع أسماء: على يوسف وأحمد لطفى السيد وعبد العزيز جاويش، واستطاع أحمد حلمى أن يخوض المعارك لفضح سياسة الإحتلال وأذنابه من شاكلة أصحاب «المقطم» ولعل أهم تلك المعارك هى التى طالب فيها، بالدستور، وتحمس له أبناء الشعب حتى جمعوا ٧٥ ألف توقيع على عريضة تقدم بها إلى الخديو عباس حلمى الثانى نصها كما يلى:

«مولاي» :

إننى بكل إخلاص وثقة بأميالكم السامية، ألتمس من لدنكم أن تمنحوا رعيتكم المخلصة، منحة أبيكم الكريم لها فى عام ١٨٨١ وهو إنشاء مجلس نيابى يكون عونا لحكومتكم السنية على نشر العلوم والمعارف، وأنت يا مولاى الأمير خير من يقدر الدستور قدره، لأنك نشأت نشأة عصرية ضاعفت محبتك لرعيتك التى من أجلّ أمنيتك، وتفضلوا يا مليكى بأن تعدونى فى مقدمة رعاياك المخلصين.

«الإمضاء»

حادث دنشواى

أما أشد كتابات أحمد حلمى تأثيرا فى الجماهير، فهى تقاريره الصحفية عن محاكمة «دنشواى» والتى نقل فيها وصفا دقيقا لهذه المهزلة التى كانت تجرى على أرض مصر بفعل الإحتلال وأذنابه الذين تعاونوا على إقامة المجزرة، وكان أحمد حلمى بحسه الصحفى وقلمه السيال يغمس قلمه فى دماء جرحى وشهداء دنشواى ويقدم إلى قراء «اللواء» ما كان يثور فى نفسه من نقمة على إنتهاك العدالة، باسم العدالة.. وضياع الكرامة.. باسم الحفاظ على حقوق الأجانب.. وفى يوم تنفيذ الأحكام على الفلاحين كان أحمد حلمى شاهد عيان.. فكتب تحت عنوان «يا رافع البلاء» يصف جريمة تنفيذ عمليات الإعدام والجلد على مرأى من أهل القرى..

فيقول: كاد دمى يجمد فى عروقى بعد تلك المناظر الفظيعة، فلم أستطع الوقوف بعد الذ ى شاهدته، فقفلت راجعا وركبت عربتى، وبينما كان السائق يلهب خيولها بسوطة، كنت أسمع صياح ذلك الرجل يلهب الجلاد جسمه بسوطه هذا، ورجائى من القراء أن يقبلوا معذرتى من عدم وصف ما فى البلدة من مآتم عامة، وكآبة سادت كل بيت، وحزن باسط ذراعيه حول الأهالى، حتى أن أجران غلالهم كان يدوسها الذين حضروا لمشاهدة هذه المجزرة البشرية، وتأكل فيها الأنعام والدواب بلا معارض ولاممانع، كأن لا أصحاب لها، ومعذرتى واضحة لأنى لا أتمالك نفسى وشعورى أمام هذا البلاء الواقع الذى ليس له من دافع إلا بهذا المقدار من الوصف والإيضاح».

وكان من أثر هذه الكلمات التى فضحت الإحتلال وأذنابه، أن التهبت مشاعر المصريين والأحرار فى كل مكان حتى أن المؤرخ عبدالرحمن الرافعى، وكان لم يزل طالبا بكلية الحقوق، يعترف بأنه عندما قرأ هذه المقالة لأحمد حلمى أقشعر بدنه من هول ما قرأ، ورأى مخالفة منهج التحقيق والمحاكمة لما كان يتلقاه من أصول المحاكمات الجنائية، وتساءل: ما فائدة الدروس وقواعد القانون، إذا كانت لا تنطبق على الناس كافة، وأدرك مبلغ هوان المصريين فى نظر الإحتلال، وتحقق أنه لا كرامة لأنه بغير الإستقلال.

قضايا المجتمع

وخلال السنوات الثمانى التى قضاها أحمد حلمى فى صحيفة «اللواء» أثار العديد من القضايا التى تهم المجتمع، فكان أول المطالبين

بإنشاء وزارة للزراعة، كما تعرض لقضايا التعليم وكيف أن غرض الحكومة من التعليم هو تضييق دائرة الارتقاء العلمى على أولاد الفقراء تضييقا تاما وحصر تلقى العلم فى أولاد الأغنياء، وقصر الهدف من التعليم على تخريج موظفين يأتمرون بأمر الحكومة، كما تبنى قضايا العمال بعد أن استبد به أرباب العمل، بلا شفقة، كما نادى بتشجيع الصناعة الوطنية وترسيخ أقدامها فى مواجهة المنافسة الأجنبية.

● فى يناير ١٩٠٨ توفى مصطفى كامل، ووجد أحمد حلمى أن من الصعب عليه أن يواصل العمل فى «اللواء» تحت إدارة جديدة، وزعامة جديدة حتى لو كان الزعيم الجديد هو محمد فريد فاستقل بنفسه وأصدر صحيفة «القطر المصرى» ووصفها بأنها «مجلة سياسية وطنية أدبية زراعية صناعية»، وأكد التزامه بمبادئ الحزب الوطنى وشرح سياسة جريدته فى المبادئ التالية:

● **السعى بكل الوسائل فى تقوية الإرتباط بين المسلمين والأقباط.**

● تجنب البحث فى كل ما يجر الكلام على الأديان أو تفضيل واحد منها على الآخر مراعاة لعواطف من يدينون به.

الإقلال من مناقشة الجرائد وعدم التعرض لأشخاص أصحابها بقدر المستطاع، خصوصا إذا كانوا من الضعفاء الذين يكتب لهم ما ينشر بأسمائهم، مما لا يستطيعون أن يقرأوه معربا أو غير معرب.

وعلى صفحات «القطر المصرى» يجدد أحمد حلمى دعوته السابقة على صفحات «اللواء» من أجل إصدار الدستور ويتساءل «هل الذى نطالب به دستور جديد معلوم، أم هو دستور قديم معلوم؟» يتقدم إلى «الأفوكاتو العمومى» فى محكمة الإستئناف بسبب هذه المقالة يندد فيها بالإحتلال، ويطالب فيها بالدستور فيعلق على ذلك بقوله: إن الإعتماد على قوة جيش الإحتلال فى الوقت الذى تستفزون فيه غضب الأمة بحرمانها من أكبر الأمانى، ووقوفكم حجر عثرة فى طريق المجلس النيابى، ليس من مصلحتكم فدعوا الأمير وأمته ينيلها ما طلبت، خير لكم وللأمير والأمة، بل والإنسانية أيضا إن كنتم لها ناصرين.

ويقدم أحمد حلمى للمحاكمة، لنشره قصيدة للشاعر أحمد نسيم رأى فيها صاحب «المؤيد» - الشيخ على يوسف - سبا وقذفا عليه، ويصدر الحكم بتغريم أحمد حلمى وأحمد نسيم مبلغ خمسة وعشرين جنيها، و٤٠٠ مليم ويكتب أحمد حلمى كيف أن النيابة ترميه بأكبر تهمة لم تنتظر مثلها المحاكم المصرية منذ افتتاحها عام ١٨٨٣ وهى:

- **التطاول على مسند الخديوية المصرية.**
- **الطعن فى نظام حقوق الوراثة فيها.**
- **الطعن فى حقوق الحضرة الفخيمة الخديوية.**
- **دعوة الأمة للخروج على طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية.**
- **الطعن على ذات الحضرة الفخيمة الخديوية.**

ويتوالى تقديم أحمد حلمى إلى المحاكم وفى ٣١ مارس ١٩٠٩ يقود مظاهرة شعبية شارك فيها خمسة وعشرون ألف مصرى احتجاجا على

إعادة العمل بقانون المطبوعات الصادر فى عام ١٨٨١ فيحكم عليه بالحبس أربعة شهور حبسا بسيطا مع كفالة قدرها عشرة جنيهات، ثم يصدر الحكم بتعطيل جريدته (القطر المصرى) ستة شهور فى قضية يعتبر فيها أحمد حلمى «أول مصرى يحكم عليه بتهمة العيب فى الذات الملكية - الخديوية» على حد تعبير الدكتور أحمد بدوى.

ويرد أحمد حلمى على الحكم بقوله: «إن حكم المحكمة نقابله بما يليق من الإعتبار، وإنا لنبتهج أن أتيح لنا أن نحاكم فى سبيل الفضيلة لأن الإنسان فيما يجهر فيه من رأى لا ييتئس أن يحمل فى سبيل ذلك مصاعب أهونها أن يخسر شيئا من المال، فمرحبا بالخسارة وإن كان لنا من هذا الحكم إلى عدل الإستئناف».

فلما انتقلت القضية إلى محكمة الاستئناف، لم تقتصر على تأييد الحكم الابتدائى وإنما رفعت الحكم من ستة أشهر إلى سنة «لتطاوله فى جريدته على مقام الحضرة الفخيمة الخديوية(!!)».

وبعد انقضاء فترة الستة شهور الخاصة بتعطيل الجريدة عاودت الظهور وعلى صدرها العبارة التالية لأحمد حلمى والذى لقب نفسه «سجين الحرية»: «حرية الخطابة وعدالة الإدارة والقضاء وإحترام الأقوياء حقوق الضعفاء، إنها لسبيل الأمم إلى السعادة والإتقاء».

كما نشرت الجريدة قصيدة لأحمد حلمى يقول فى مطلعها:

أصار حق بلادى اليوم مخذولا

حتى غدا نصره بالسجن مكفولا

أم أن قومى أضاعوا (العدل) بينهمو

فاستنكروه وأرضوا بى الأباطيل

السجون المصرية

وبعد إنقضاء عقوبة السجن يصدر أحمد حلمى كتابا عنوانه (السجون المصرية فى عهد الإحتلال الإنجليزى) ويصدره بعبارة نصها «سجن الجسم خير من سجن الضمير» ويكتب فى مقدمة الكتاب: الحمد لله الذى قدر للإنسان السجن فى البطن وهو جنين مستكن، قبل أن يتمثل بشرا سويا، سبحانه من عليم سمع نداء نبيه يونس عليه السلام وهو فى بطن الحوت، وكان نداؤه فى الظلمات الثلاث نداء خفيا، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد واضع شرعة العدل، ومانح عباد الله نواميس الحرية، الذى حكم البلاد وساس العباد، بغير أن يتخذ لتعذيب الناس سجنا ولا مطبقا، النبى العربى الأمى الذى كانت أحكامه خيرا مطلقا، وعلى آله وصحبه الذين نصروا الحق وأقاموا قواعد الجزاء بالصدق، فكانت أيامهم صلاحا، وأنتجت أحكامهم فلاحا.

والكتاب ـ كما يقول الدكتور المسلمى ـ يشتمل على: مناجاة الحرية، وتعريف السجون وتاريخها وأنواعها فى عهد الرومان، والسجون فى الشرق، والسجون عند العرب فى الجاهلية والإسلام. وسجون الهند القديمة منذ سيادة المسلمين، وطرق تعذيب المسجونين المسيحيين بعضهم بعضا لإختلاف المذاهب النصرانية، وبيان مستفيض عن سجون إنجلترا، وأسماء مصلحيها ونظام العلامة «بنتام» وتقسيم

المسجونين بحسب أنواع جرائمهم وأشغالهم ومأكلهم ونظافتهم وصحتهم وتشغيلهم وعقابهم ودراسة مقارنة عن السجون فى إنجلترا وفرنسا وأيرلندا وأمريكا وبلجيكا والنمسا وإيطاليا وألمانيا والدولة العلية (العثمانية).

أما الجزء الثانى من الكتاب فيشرح فيه أحمد حلمى بيان الطريقة التى وصل بها إلى السجن وأدوار القضية الأولى ومرافعات النيابة والمحاماة والأحكام فى الدرجتين الأولى والثانية، وكذلك القضية الثانية، ووصف سجن القاهرة (قرة ميدان) الذى قضى فيه العقوبة، والمعاملة التى لقيها هناك،ومعاملته من حيث النوم والطعام والعمل، وزملائه وسلوكه فى السجن وإغرائه بكتابة اعتذار وطلب العفو، والأجرة التى قبضها عن عمله فى السجن (٤٩٨ مليما) وتبرع بها إلى الحزب الوطنى، وإنتقاله إلى سجن الإستئناف تمهيدا للإفراج عنه.

شخصية متعددة المواهب

كان أحمد حلمى شخصية متعددة المواهب، فهو إلى جانب احترافه الصحافة، كان شاعرا مجيدا، ويصف الدكتور أحمد بدوى شعر أحمد حلمى بأنه سياسى صاخب ثائر، ذو أسلوب سهل واضح، كما رأينا أحمد حلمى مؤلفا لأول كتاب باللغة العربية عن السجون المصرية، وبالاضافة إلى ذلك كان خطيبا مؤثرا فى الجماهير، وكان لديه اهتمامات كبيرة بالزراعة، وبعد الحرب العالمية الأولى أصدر جريدة «الزراعة»، واستأجر عزبة كبيرة مساحتها ألف فدان فى كفر دملاش بمركز شربين وأشرف على زراعتها ونظم طرق الرى والصرف بها

وأصلح كثيرا من الأرض البور وعامل الفلاحين بصدق وأمانة، ونقل مقر إقامته إلى بلقاس حينا والمنصورة حينا آخر ليكون على مقربة من زراعته وصار خبيرا فى الزراعة حتى أنه استأجر مزرعة من دائرة «شريف باشا» بالقرب من منية السيرج شمالى القاهرة حيث يقع الشارع الذى يحمل اسمه الآن، ولكن الأزمة الإقتصادية التى عصفت بالبلاد فى الثلاثينات أطاحت بكل هذه الثروة الطائلة فأصابته الأمراض إلى أن لقى ربه فى ١٨ يناير ١٩٣٦ يرحمه الله.

ابـن هـانـئ المصرى

تعرف الحياة الثقافية الغربية نوعا من الأدب اسمه أدب الاعتراف، هو خلاصة تجارب المفكرين والسياسيين ورجال الأدب والعلوم عندما يصلون إلى قمة العطاء فينشرون على الناس ما خفى من حياتهم الخاصة، وهذا النوع يختلف عن المذكرات التى يروى فيها الشخص أحداثا وقعت له أو لغيره مدعمة بالأسانيد ويعرفها كل الناس وتأتى المذكرات لتضيف شهادة جديدة إلى الحدث، أما أدب الاعتراف فهو تسجيل لما وقع فى الحياة الخاصة حتى لو كان فيها ما يخدش الأعراف والتقاليد، يرويها الأديب أو السياسى أو الفيلسوف بلا تحرج أو خجل، ولا يرى عيبا فى أن يقول: إنه كان فى مطلع شبابه لصا أو قاتلا أو متسولا.. تجد ذلك عند الفيلسوف الفرنسى سان سيمون وعند نظيره جان جاك روسو، والناس يقرأون هذه الإعترافات دون أن يحملوا لهؤلاء المعترفين أى شعور بالاحتقار.

ولكن حياتنا الثقافية فى مصر والشرق لم تعرف هذا اللون من الأدب الصريح، ربما لأن المجتمعات الشرقية تعودت على النظرة

الأحـادية إلى الأمـور، وإلى الأشخـاص.. إمـا أبيض، وإمـا أسـود، ولم تالف النظرة الرمـادية التى تختلط فيها الظلال، وتمتزج فيها الفضيلة بالرذيلة، والخـيـر بالشـر، والمحـاسن بالمساوى، ولم تتـعـود أن تضع الإنسان فى قالبه البشرى العادى.. ليس ملاكا ولا شيطانا.. فيه النبل وفيه الخسة، وفيه الشجاعة والضعف.. وفيه الكرم والنذالة.. العقل الشرقى لا يقبل بتشويه الصورة التى تخيلها للمشاهير.. حتى لو كانت اعترافا من المشاهير أنفسهم، ولك تتصور ما يحدث لو أن شخصا مرموقا اعترف للناس بماضيه وما فيه من نقائص.. ولعل قصة الكاتب الكبير نجيب محفوظ (أيوب) خير مثال على ذلك، وقد رأينا كيف تكتلت كل القوى العائلية والاجتماعية للحيلولة دون طبع اعترافات رجل الاقتصاد (عبدالحميد) ولو أدى الأمر إلى تدمير المطبعة وحرق الكتاب وقتل البطل هذا النقص فى أدب الإعتراف يعوضه قيام بعض الأبناء بمهمة الحديث عن حياة آبائهم الخاصة، فالسفير حسين أمين وضع كتابا عن أبيه العلامة أحمد أمين سماه (فى بيت أحمد أمين) سلسلة كتاب الهلال رقم ٤١٥ فى يوليو ١٩٨٥ وكشف فيه عن جوانب شخصيته وأسلوب حياته مالا يمكن أن يعرفه إلا واحد من أبنائه وكذلك فعل السفير حسين أحمد شوقى عن أبيه أمير الشعراء حيث ألف كتابا سماه (أبى.. شوقى) الذى صدر عن مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٤٧ وفيه جوانب خفية عن شخصية هذ الرجل الفذ الذى عرفته الملايين شاعرا أكبر للعربية.. ولم تعرف الكثير عن حياته العادية فى البيت والمكتب والمزرعة وعلاقته باهل بيته ونقاط الضعف

فى شخصيته.. وسوف أخصص هذا الحديث عن أمير الشعراء من منظور ابنه.

سرعة التقلب

لعل أول ما يفاجئنا فى شخصية شوقى بك أنه كان كالمحيط سريع التقلب.. سريع الغضب إذا حدث ما يعكر مزاجه أما إذا كان مزاجه معتدلا فهو لطيف غاية اللطف، يدلل الجميع ويلاطفهم، بل يرهق من حوله بالقبلات بمن فيهم الكلبة (بلوته) التى أحضرها ابنه من أسبانيا أثناء اقامتهم فى المنفى..

أما ثانى المفاجأت فى شخصية أمير الشعراء كما يقول ابنه.. فهى الأنانية الشديدة.. إن أحدا من أهل بيته لا يستطيع أن يتناول طعام الغداء فى موعده حتى لو عضه الجوع، وكان لزاما على الجميع أن ينتظروا حتى يشعر شوقى بك بحاجته إلى الغداء.. وكثيرا ما كان يطول الانتظار لأنه كان يصحو من نومة متأخرا فيفطر بطبيعة الحال متأخرا أيضا، وحين كانت الأسرة تقضى الصيف فى أوروبا وترتاد المطاعم، فإن أحدا من ولديه - حسن أو على - لم يكن يملك القدرة على اختيار أصناف الطعام، بل كان يجب عليه أن يقبل ما يختاره الأب من أصناف مجهولة الأسماء، كى يختار هو منها فى المرة القادمة إذا راقته وكانت اقتراحاته هذه تفسد الأكل على ولديه لأن الأصناف المجهولة كانت (مقالب) فى معظم المرات.. مثل شربة الضفادع التى لا تروق للذوق الشرقى..

ويضرب حسين شوقى مثلا على نزعة الأنانية التى كانت متحكمة فى شخصية أمير الشعراء بما حدث عندما بدأ الخديو عباس حلمى الثانى رحلة الحج، وكان من الطبيعى أن يطلب من نديمه وصديقه وشاعر بلاطه أحمد شوقى مرافقته فى هذه الرحلة المقدسة.. وانضم شوقى بالفعل إلى الركب الخديوى.. ولكن ما أن وصل الركب إلى مدينة بنها حتى اختفى شوقى.. وجعل الخديو يبحث عنه فى كل أنحاء المدينة حتى أعياه البحث فاستأنف الرحيل إلى الأراضى الحجازية بينما كان شوقى يختبىء فى منزل أحد أصدقائه ولما عاد الخديو من الحج أخذ يلوم شاعره على فعلته فاعتذر عن هذا قائلا: كل شئ إلا ركوب ظهور الجمال يا أفندينا(!!) وحين شعر شوقى بالندم نظم قصيدته الشهيرة (إلى عرفات الله) وفيها يعتذر إلى الخديو.. ويطلب من الله الصفح والغفران وهى القصيدة التى اختارت أم كلثوم بعض أبياتها لتغنيها ولا تزال تذاع حتى اليوم فى موسم الحج ويقول فيها:

ويا ربِّ هل تُغْنى عن العبد حجةٌ
وفى العمر ما فيه من الهفوات

وأنت ولُى العفو فامح بناصع
من الصفح ما سوِّدت من صفحاتى

ويعطينا حسين شوقى وصفا تفصيليا للبيت الكبير الذى كان يقيم فيه أمير الشعراء بضاحية المطرية وقد اختار هذه الضاحية ليكون على مقربة من قصر القبة حيث كان يقضى الخديو عباس الثانى معظم أوقات فراغه، وكان هذا البيت تحيط به حدائق غناء وقد أطلق عليه

اسم (كرمة بن هانىء) ونفهم من كاتب المذكرات أن شوقى لم يكن يقصد ابن هانىء الأندلسى شاعر المعز لدين الله الفاطمى المشهور. وإنما «أبونواس» لأن شوقى كان معجبا به ويرى أنه لم ينل حظه من الدراسة العميقة كما أن الأساطير جعلت منه شاعراً ماجنا.

قطة من أنقرة

فى هذا البيت الكبير كان يعيش أمير الشعراء مع زوجته وولديه على وحسين، أما ابنته أمينه فقد تزوجت وهى دون الخامسة عشرة وأقامت فى منزل كان يفصله عن بيت الأسرة جدار، فأزيل حتى لا يقوم حاجز بين الأبنة وأبيها، ويعطينا الأبن صورة وصفية لامه فيقول، أنها غاية فى الرقة والدماثة فلا تتدخل فى أى شأن من شئون زوجها حتى كان شوقى بك يشبهها بقطة من أنقرة بسبب رقتها البالغة، وقد اشتهر هذا النوع من القطط التركية بالرقة والترفع، والإشارة أيضا إلى أصل الأم التركى.

يقول حسين أحمد شوقى عن أبويه: وإذا كان أبى قد وفق فى حياته الأدبية فأكبر الفضل راجع إلى أمى بسبب خلقها الرقيق، وبسبب طيبتها التى لا حد لها، فهى لم توجه إليه لوما فى حياته مرة..! مع أنه كان خليقا باللوم أحيانا، فهو كثيرا كان يستصحب وقت الظهر أصدقاء حين عودته إلى المنزل فيتغذى معهم، على حين تتغدى هى وحدها.. أما العشاء فكان يتناوله معظم الأحايين فى الخارج..

وفى مقابل شخصية الأم الرقيقة كانت هناك شخصية أخرى غاية فى الإستبداد والتعنت هى شخصية المربية التركية التى كانت تحكم

البيت كله بيد من حديد. فبعد طرد الخديو عباس الثانى من مصر قبيل إندلاع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ أقام فى فيينا عاصمة النمسا، بينما كان صديقة ونديمه شوقى بك يقيم مع أسرته فى أسبانيا وقد عرض الخديو على أمير الشعراء أن يحضر ليقيم معه فى النمسا، وأبدى استعدداده لارسال غواصة ألمانية تحمله إذا وافق، ولكن شوقى بك اعتذر حتى لا يتعرض لإنتقام السلطات البريطانية فتمنعه من العودة إلى وطنه، وفى عام ١٩١٩ سمح له بالعودة إلى مصر على أول سفينة غادرت أوروبا إلى أرض الكنانة، وعاد شوقى وأسرته إلى مصر التى أحبها حبا، جما، وخرجت الجماهير لاستقباله استقبالا حافلا فى ميناء الإسكندرية وعلى محطة القاهرة وحملوه على الأعناق من القطار إلى السيارة، حتى كانت الدموع تترقرق فى عينيه طول الطريق من المحطة إلى المطرية وقال شوقى فى ذلك:

وَحَيا الله فتيانا سماحا
كسوا عطفى من فخر ثيابا

ملائكة إذا حفوك يومًا
أحبك كل من تلقى وهابا

تلقونى بكل أغرّ زاه
كأن على أسرّته شهابا

ويصف حسين شوقى شعور أبيه بعد ثورة ١٩١٩ : ومما زاد فى فرح أبى أنه رأى بنى وطنه قد بعثوا من جديد وأن جهاده الطويل فى هذا

السبيل من قبل قد كلل أخيرا بالنجاح، وأن شبان الحمى قد صمموا على خلع نير الأجنبى المخزى بل هو دهش مبهوت مما رأى غير أن أبى كان جد أسف على أنه لم يستطع أن يشترك فى تلك الثورة المباركة بسبب وجوده بالمنفى إذ ذاك وقد عبر عن هذا الأسف فى قصيدة نظمها فى ذكرى عيد الجهاد فى ١٣ نوفمبر:

يوم البطولة لو شـــهـــدت ناره

لنظمت للأجـــيـــال مـــا لم ينظم

لولا عـــوادى النفى أو عـــقـــبـــاته

والنفى حـــال من عـــذاب جـــهـنم

وقال فى قصيدة أخرى نظمها عن نفس المناسبة:

صـــبـــاحك كـــان إقـــبـــالا وسـعـــداً

فـــيـــا يوم الرســـالة «عم صـــبـــاحـــا»

جـــلالك عن سنا الأضـــحى تجلى

ونورك عن هلال الفـــجـــر لاحـــا

كـــأن بلال نودى: قـم فـــأذن

فـــرج شـــعـــاب مكة والبطاحـــا

كـــأن الناس فى دين جـــديد

على جنبـــاته اســتـــبـــقـوا الصـــلاحـــا

وقـــد هانت حــيـــاتهـــمـــو عليـــهم

وكـــانوا بالحــيـــاة هم الشــحـــاحـــا

فـــتـــســـمـــع فى مـــآتمهـم غـنــاء

وتســـــمع فـى ولائمـــــهم نـواحـــــا

مـع الشاعـر النيـل

وانتقل شوقى بك وأسرته من كرمة ابن هانىء بالمطرية إلى كرمة ابن هانئ بالجيزة، ومنها كان يرى الهرم بالعين المجردة، وكان شاعر النيل حافظ إبراهيم دائم التردد على بيت أمير الشعراء ويقول عنه صاحب المذكرات أن صحبته كانت مسلية باستثناء شيء واحد، وهو أن حافظ إبراهيم كان يفضل نوعا من السيجار ثمنه ثلاثون قرشا ويرفض السيجار الذى ثمنه عشرة قروش.

وكان شوقى بك مغرما بمدينة الإسكندرية ويقضى فيها وقتا طويلا صيفا وشتاء ولكن هذا الغرام كلفه غالياً إذ اشترى قطعة أرض بالإبراهيمية تطل على البحر ثم شرع يبنى عليها بيتا صغيرا سماه «درة الغواص» كما أنه اشترى عزبة فى ضواحى الإسكندرية، ثم رأى أن يشترى سيارة أخرى استخدم لها سائقا خاصا تظل بالأسكندرية فى خدمته ليذهب بها إلى العزبة المذكورة.. يقول حسين شوقى: من دواعى الأسف أن أبى كان يخلط الخيال والشعر بالشئون المالية، وهما أمران متناقضان.. مثال ذلك: أنه لما اشترى هذه العزبة، وكانت صفقة خاسرة، سأله أحد أصدقائه عن مدى جودة تربتها، فأجابه: لابد أن

تصبح أرضا طيبه لأن إبنى حسين قد باركها إذ طاف حولها: على ظهر حمار، كما فعل السيد المسيح.

وكما كان شوقى بك يتفاءل، كان أيضا يتشاءم إذا تراءى له من بُعد أحد معارفه الذين اشتهروا بمنحوس الطالع، ركب سيارته من فوره، وأمر سائقه بالإنطلاق.. وكذلك كان يتشاءم من صوت البوم لدرجة أنه خصها بقصيدة غاية فى القسوة على هذا الطائر المشهور بالشؤم.

ويتحدث حسين شوقى عن علاقة أبيه بالزعيم سعد زغلول، وكان شوقى يذكر على الدوام عهودا كريمة كانت بينه وبين سعد باشا، وكان من أغلى الذكريات عنده «ساعة» أهداها له سعد باشا حين التقيا فى سويسرا، وكان سعد يختار هدية الزفاف بأم المصريين، فاشترك شوقى فى الاختيار ثم اختار سعد تلك الساعة وأهداها إلى شوقى بك.

ويقول: مما زاد فى محبة أبى لسعد باشا تفضل دولته بترشيحه لمجلس الشيوخ عن دائرة سيناء، وقد اختارها له لأنها مهبط الديانات ومسرى الوحى، كذلك لأن هذه الدائرة لا تحتاج إلى نضال حزبى، وفعلا تم إنتخاب شوقى بك بالتزكية عن هذه الدائرة وكان أبى كثير التردد على «بيت الأمة»، وكان يستصحبنى معه وأنا مغتبط لأن شخصية سعد باشا كانت جذابة جدا ولأن دولته كان يتفضل بملاطفتى.

وحول علاقة أمير الشعراء بالأطعمة وتذوقها يتبين أنه لم يكن أكولا ولكنه كان ذواقة، وحدث أن كان فى ضيافته الزعيم التونسى الثعالبى، وعلم منه شوقى بك أنه يتقن طبخ (الكسكسى) فما كان من أمير

الشعراء إلا أن استصحبه إلى المطبخ حيث صنع لهم وجبة من هذا الصنف.

وعن صلة شوقى بالفنان محمد عبد الوهاب تبين أنهما التقيا لأول مرة عام ١٩٢٤ خلال حفل اقامه معهد الموسيقى الشرقية فى كازينو سان ستيفانو بالإسكندرية، وكان شوقى بك قد سمع عبد الوهاب قبل ذلك ببضع سنوات عندما كان يغنى فى مسرح «برنتانيا» وكان لا يزال صغيرا مما دفع شوقى بك إلى الإتصال بحكمدار العاصمة ليرجوه منع الأحداث من الغناء وجاءه مرة عبد الوهاب وهو حزين وأخرج لفافة من قصاصات الصحف التى تهاجمه فقال له شوقى بك، لا تحزن بل يجب أن تسر من ذلك لأن النقد يرفعك ويزيد فى شهرتك، وسأثبت لك ذلك بالعمل.. ضع هذه الصحف على الأرض وقف عليها بقدميك، ففعل عبد الوهاب فقال له شوقى ألم أقل لك أن النقد يرفعك!

المرض والموت

ومن الخصائص النفسية عند أمير الشعراء أنه كان شديد الحساسية تجاه المرض والموت لدرجة أنه كان يهرب من البيت إذا مرض أحد أولاده، بل يسافر إلى الإسكندرية ويظل هناك حتى يزول الخطر، وحين علم بنبأ وفاة أمه وهو فى المنفى بأسبانيا، رثاها بقصيدة طويلة ثم طواها، ولم تنشر إلا بعد وفاته ذلك لأنه من فرط تأثره بها تحاشى أن ينظر إلى القصيدة بعد نظمها، ويقول فى مطلعها:

إلى الله اشكو من عـوادى النوى سـهـمـا

أصـــاب ســويداء الفــؤاد ومـــا أصـــمى

وبعد عـودته من المنفى لم يطق أن يذهب إلى حلوان حيث مـاتت أمه، ولما مـاتت أخته فى عام ١٩٣٠ مشى فى جنازتها ثم سافر إلى الإسكندرية مباشرة ولم ينتظر لحضور ليالى المآتم مما أثار بعض أقاربه وأنتقدوه على هذا التصرف.

وحين مـرض شوقى بك مرض الموت حرص أولاده على إخفـاء حقيقة المرض عنه، وكانت الحمى قد أنهكت جسده، وذات يوم زاره قريب له ساذج فوضع كفه على جبهته وقال: أظن يا سعادة البك أنه لا توجد لديك حـمى بتاتا، ثم أخذ ميزان الحرارة ووضعه فى فم شوقى بك، وبعد فترة إخرج الميزان وأخذ يتأمله وهو يقول ما شاء الله.. ما شاء الله.. أن حـرارتك ٣٣ درجـة فـقط يا سعـادة البك.. وهنا صـاح شوقى مغضبا: أيها الجاهل لو كانت حرارتى ٣٣ درجة كما تقول لكنت الآن ميتا!!

وكما كان شوقى بك حساسا تجاه المرض والموت، فـقد كان لديه حساسية تجاه النقد، ولا يتقبل بسهولة نقد مؤلفاته، وخاصة شعره الذى كان فخورا به إلى حد بعيد، لذلك حرص أولاده على إخفاء الصحف التى كانت تنشر نقدا لروايته «قمبيز».

وفى يوم وفاته فى ١٣ أكتوبر ١٩٣٢ خرج شوقى بك يتروض فى سيارته مع سكرتيره فى ضاحية مصر الجديدة وطرق معه موضوعات دينيـة وقد سأله بوجـه خاص - وكأنه قد أحس بدنو أجله - عن التوبة

والغفران، وطلب منه ذكر الآيات القرآنية فى ذلك، ثم زار فى المساء صديقة توفيق بك دياب فى مكتبه بجريدة الجهاد، وعاد إلى بيته وذهب إلى فراشه وفى حوالى الساعة الثانية صباحا استدعى ابنه حسين، فاسرع إليه فوجد أمه بجانب أبيه وهى تناديه وتستفسر عما به.. ولكنه لا يجيب إذ كانت روحه قد فاضت وصعدت إلى عالم الغيب الذى طالما ساءل عنه وتمنى لو عرف أسراره، وقال فى ذلك مخاطبا شكسبير:

يا صاحب العصر الحالى إلا خبر

عن عالم الموت يرويه الألباء

أما الحياة فأمر قد وصفت لنا

فهل لما بعد تمثيل وإدناء

وبعد دفنه نقش أبناؤه على قبره بيتين من قصيدته «نهج البردة» فى مديح الرسول ﷺ وهما:

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى

وكيف لا يتسامى بالرسول سمى

إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل

فى الله يجعلنى فى خير معتصم

آخر العنقود الفاسد

فى يوم ٢٨ أبريل ١٩٣٦ لفظ الملك «فؤاد» أنفاسه الأخيره وترك نبأ رحيله ارتياحا عاما فى أرجاء البلاد، وشعر الناس أن كابوسا ثقيلا قد انزاح عن صدورهم، وأن صفحة من كتاب الاستبداد والطغيان قد انطوت، ولم يكن فى هذا الإحساس الشعبى جحود أو نكران للأعمال الحضارية التى قام بها الملك فؤاد فى مجالات التمدين والتعليم والثقافة ولكن هذه اللمسات الحضارية محقتها تصرفاته الإستبدادية وجنوحه إلى الإنفراد بالحكم وعبثه بالدستور واعتداؤه على النظام النيابى الذى تمتعت به مصر فى أعقاب ثورتها الشعبية عام ١٩١٩ وصدور دستور ١٩٢٣، ولم ينس المصريون أن الملك فؤاد ضاق بالدستور فعلقه أكثر من مرة ثم ألغاه سنة ١٩٣٠ وكلف ترزية القوانين بتفصيل دستور يناسب أطماعه الأوتوقراطية ولم ينس المصريون الصراع الصارخ بينه وبين الأمة المصرية ممثلة فى زعيمها سعد زغلول ومن بعده مصطفى النحاس.. وكيف انتهى هذا الصراع بتعطيل الإرادة الشعبية وحرمان الأمة من ثمرات كفاحها الوطنى والدستورى..

وعقب إعلان وفاة الملك فؤاد اجتمع مجلس الوزراء برئاسة على ماهر عشر ساعات متواصلة وأعلن المناداة بابنه (فاروق) ملكا على مصر، ودوت البشرى فى جميع أنحاء مصر، واستقبل الشعب الخبر بالسرور الصادق، وأصدرت المحاكم أحكامها باسم الملك، الجديد، ودعا له خطباء الجمعة عملا بالتقليد الذى يضفى الشرعية على الحاكم الجديد عن طريق الخطبة، وحدث نفس الشىء فى الكنائس وصدرت طوابع البريد تحمل صورة الملك الجديد، وما أن عاد فاروق إلى أرض الوطن فى ٦ مايو حتى خرجت الجموع ترحب به وتهتف باسمه وهرع الناس فى مدن الدلتا لتحيته أثناء رحلته بالقطار من الإسكندرية إلى القاهرة ولم يكن الشعب المصرى مغاليا فى التعبير عن فرحته بهذا العاهل الشاب فقد وجدوا فى شبابه الأمل والحيوية والبراءة واستبشروا بعهد جديد يسمو على عهد أبيه ويخلو من العيوب والصراعات التى تميز بها حكم فؤاد وتذكروا أن فاروق هو أول ملك يحكم دون فرمان من السلطنة العثمانية مثلما حدث لكل أسلافه منذ محمد على حتى عباس حلمى الثانى كما أنه لم يعين بقرار بريطانى مثلما حدث لعمه السلطان حسين كامل، ولأبيه أحمد فؤاد الذى عين سلطانا بقرار من السفارة البريطانية!!

الأمل يتبدد

كانت تلك هى بداية فاروق.. وهى بداية مشبعة بالتفاؤل والأمل.. ولكن.. سرعان ما انقشع الأمل.. وتبدد التفاؤل.. وتحول الملاك الذى يشع وجهه بالبراءة إلى فرعون صغير، فسار على خطى أبيه ونهجه

فى الإستبداد والتسلط.. وسرعان ما ألقى بنفسه فى عش الدبابير الذى يحوى عتاة السياسة الرجعية، وهم حفنة من بقايا الترك والمتمصرين وبعض المصريين الذين لا يؤمنون بحق الشعب فى أن يحكم نفسه بنفسه عن طريق انتخابات حرة، وسرعان ما انغمس فاروق فى مستنقع الفساد والغواية ولم يتورع عن تجهيز عصابه من القتلة ـ الحرس الحديدى ـ لتصفية خصومه غيله وغدرا!!

ما هو السر فى التحول من النقيض إلى النقيض؟

إن الكتاب والمؤرخين الذين حاولوا تفسير هذا التحول أشاروا إلى أسماء بعينها كان لها أكبر الأثر على شخصية فاروق، ولا شك أن تفسيراتهم صحيحة إذا تذكرنا أن هؤلاء الذين أحاطوا بفاروق كانوا من ألد أعداء الديمقراطية ومن غلاة الحكم الإستبدادى ولكن لماذا ترك فاروق زمام أمره إلى هؤلاء ولماذا انعزل عن الشعب الذى أحاطه بكل مشاعر الحب؟

هنا لابد أن نعود إلى النشأة الأولى لفاروق أعنى فترة الصبا لأنها الفترة التى تتبلور فيها الشخصية الإنسانية حيث تستمد مقوماتها الخلقية والنفسية من الظروف المحيطة بها، ويكاد يتفق المؤرخون على أن فاروق نشأ فى «قمقم» لا يسمح له بالتنفس خارج إطار السجن الذى وضعه فيه أبوه.. فلم يكن للصبى أصدقاء من اترابه ولم يجد حوله سوى الخدم والشماشرجية وبعض العمال الطليان العاملين فى القصر، وكانوا جميعا على إستعداد لأن يقدموا إلى الصبى أسوأ مالديهم من بضاعة وصار «سلم الخدم» هو النافذة التى يطل منها فاروق على العالم

خارج القصر.. وهو مصدر ثقافته الشعبية.. والبؤرة التى يتعلم منها أسرار الحياة الخلفية.. وكانت هذه العزلة أمرا مقصودا ومقررا من جانب الملك الأب.. يقول عادل ثابت فى كتابه (الملك الذى غدر به الجميع) كان من الآثار الأولى لخطة الملك فؤاد التعليمية هى عزل ابنه عن الأطفال الذين فى سنه بمن فيهم أطفال الأمراء من أعضاء الأسرة المالكة، وكان الخوف من منافسات ومطامع الأمراء هو الذى جعل فؤاد يحول دون التآخى بين فاروق وأترابه، وهكذا نجد لدينا صورة عن فاروق الصغير الوحيد وشقيقاته يعيشون فيما يشبه السجن بقصر القبة أو قصر المنتزه وكلاهما تحيط به جدران عالية لا يمكن تسلقها، يقوم أعضاء الحرس الملكى الخاص ذوو الأجسام القوية المسلحون جيدا بحراسة مداخلهما.

خلل فى قواه العقلية

ونحن نتكلم عن ظروف النشأة وأثرها فى تكوين «فاروق» تصادفنا مفاجأة مذهلة، وهى أن فاروق أصيب فى صباه بالحمى الشوكية النخاعية التى كان لها أثر على قواه العقلية، والقصة يرويها آخر وزير للداخلية فى عهد فاروق: أحمد مرتضى المراغى باشا، وهو نجل الأمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر، وقد سمع القصة من محمد محمود باشا وزير الداخلية عام ١٩٣٩ وكان مرتضى المراغى يعمل سكرتيرا خاصا له، ثم تأكد من صحتها من والده الشيخ المراغى وزكى الابراشى ناظر الخاصة الملكية وأحد شهود الواقعة، وقد رواها المراغى فى كتابه (غرائب من عهد فاروق) كما يلى:

كان الأمير فاروق نائما حين دخلت عليه مربيته الانجليزية صباح يوم من الأيام وأخذت تزيح الستائر المخملية وتفتح النوافذ على عادتها فانطلقت أشعة الشمس إلى رأس الطفل الذهبى الشعر، ولكنه ظل مغمض العينين، فأخذت المربية تهز كتفه وتصيح قم أيها الطفل الكسول ان الساعة بلغت السابعة، ولكن الطفل لم يتحرك بل صدر عنه أنين خافت، فهزته مرة أخرى، فتابع أنينه ولم يتكلم، أثار ذلك قلقها وزاد منه إذ رأت وجهه محتقنا شديد الاحمرار، فوضعت يدها على جبهته فوجدتها ساخنة جدا، أخذت تربت على خده، ففتح الأمير عينيه قليلا، واستمر أنينه، ولم يبق عندها شك فى أنه مريض، فأسرعت وجاءت بميزان الحرارة ووضعته تحت ابطه فترة ثم أخرجته وتطلعت فيه وصرخت بصوت خافت:

يا إلهى أنه مريض جدا، وكانت الحرارة أربعين درجة، هرعت إلى أمه الملكة نازلى وأخبرتها، فهرولت الأم إلى غرفة الأمير وطلبت من المربية استدعاء طبيب القصر على عجل، لم يستطع الطبيب فى بادئ الأمر أن يشخص المرض، فاستدعى أطباء آخرين انتبهوا إلى أن الأمير مصاب بالحمى الشوكية النخاعية.

وقرر الملك فؤاد أن يستدعى على عجل طبيبا ايطاليا شهيرا اسمه (فرجونى) وكان قد تولى علاج الملك فؤاد حين أصيب بمرض القلب، ومرت على الطفل فترة عصيبة تراوح فيها الأمل بين الشفاء واليأس ولكن الأمير شفى وذهب الابراشى باشا - ناظر الخاصة الملكية - إلى مكتب الملك فؤاد يهنئه بشفاء ولى العهد ودار بينهما الحوار التالى:

الإبراشي: جئت يا مولاى لأقدم أصدق التهانى بسلامة سمو ولى العهد.

الملك. يطرق ولا يجاوب ان سحابة من الحزن تخيم على وجهه، والإبراشى صامت ينظر إلى وجه الملك متحيرا.. وانقضت فترة ثم تأوه الملك ونظر إلى الابراشى ثم قال:

- يا زكى لا أدرى هل كان عليك أن تهنئنى أم تعزينى؟!

الابراشى: لماذا تقول ذلك يا مولاى؟

الملك: اسمع يا زكى.. أنى لا أريد أن أخفى عنك الحقيقة المؤلمة خاصة وبالذات أنت.. لأنى لا أشك فى إخلاصك لى وللعرش، لقد جاءنى الطبيب الايطالى صباح اليوم مستئذنا فى السفر، شكرناه بحرارة على براعته فى علاج فاروق، فرد على بأطراف رأسه، ثم تمتم عبارة لم أسمعها، ولما نهضت لتوديعه تردد قليلا ثم قال مضطربا:

- سيدى أود أن أقول لك شيئا قبل أن أسافر.. إن اصابة ولى العهد كانت شديدة جدا.. وأخشى أن تكون قد أثرت على المخ.

ولما لاحظ الطبيب اضطرابى قال: أنى أقول «أخشى» ولا أقول أنى متأكد.. ثم سكت. فاستطرد الملك فؤاد قائلا للطبيب الإيطالى: هل معنى ذلك أن قواه العقلية قد تصبح غير مكتملة؟

الطبيب: سيدى.. قد لا يصل الأمر إلى هذا الحد إذا لم تحصل مضاعفات، ولذا أنصح بوضع الأمير تحت عناية طبيب خاص ولفترة

طويلة، ولى أمل كبير أن يشفى تماما من آثار المرض، وأرجو أن يواظب على تعاطى العلاج الذى وصفته.

وهنا سكت الملك فؤاد. وظل الإبراشى حائرا لا يجد مايقوله: فقال الملك:

- يا زكى ستكون مصيبة لو أن المرض ترك أثرا على عقل ولى عهدى أنك تعلم أن الشيخوخة ومرض القلب يعتصرانى. وفاروق هو الصبى الوحيد المؤهل لولاية العرش من ذريتى، وآخر مولود لى جاء بنتا، ولم تبق فى البندقية خرطوشة أخرى، إن فاروق هو وريث عرش بنيته فى مهب العواصف، وقويته وأمنته حتى أصبح راسخا حتى على أشدها وأعتاها، فهل أتركه لوريث لا يجد كفاية من العقل ليحفظ العرش ويصونه؟!

الإبراشى: يامولاى أن الله كان معك دائما وسيكون معك ومع ابنك.

الملك: الله أعطانى الملك والمال بعد أن كنت فقيرا مدقعا منبوذا من أسرتى، ولكنى أراه الآن وقد تخلى عنى، وكأنه يسحب منى ما أعطانى، إن نهايتى ترنو.. وأنا أحس بذلك.

الإبراشى : ولكن ولى العهد سيشفى من آثار المرض يامولاى، كن مطمئنا.. إن شعورى لا يخيب.

الملك: هذه أمنية أشكرك عليها.. ولكن إذا لم يشف فاروق فهل يذهب عرشى إلى الأمير محمد على! كم أكرهه ويكرهنى.. بل كم أكره هذه الأسرة اللعينة!!

الإبراشى سيدى أن ملوكا كثيرين حكموا ولم يكونوا على اكتمال عقلى.

ولاحظ الإبراشى امتعاض الملك. فتدارك قائلا:

- لا تؤاخذنى يا مولاى إذا ضربت مثلا سيئا لأخفف الأمر عليك، لكن لى أملا ورجاء ، هو أن يحاط الأمير - حين يتولى الملك بعد عمر طويل لجلالتكم - بحاشية عاقلة ومخلصة ومستشارين يسهلون عليه مهمة الحكم.

قال فؤاد ساخرا: حاشية عاقلة ومخلصة يا زكى!! أن الحاشية لو كانت عاقلة فلن تكون مخلصة، ولو كانت مخلصة فهى ليست عاقلة.. وقصارى ما تصل إليه أن تكون منافقة(!!)

كان فؤاد يتكلم عن خبرة عميقة بفساد الحاشية التى تعشش فى قصره، ويعلم أنها لن تكون مخلصة فى رعاية ابنه، ومن الغريب أن فؤاد الذى كان على علم بشخصية رجل القصر المراوغ - أحمد حسنين - لم يتنبه إلى تأثير هذا الرجل على شخصية الأمير الشاب، فاختاره ليكون رائدا لفاروق حين ذهابه إلى انجلترا للتعلم، إلى جانب رجل آخر كان على النقيض من أحمد حسنين فى خلقه وأسلوبه، وهو الفريق عزيز المصرى الذى كان يتصف بالصرامة والشدة وعدم التساهل، فى تربية فاروق، ولاشك أن ذهاب فاروق إلى انجلترا وهو فى ذروة المراهقة، فتح عينيه على عالم أوربى متفرنج يختلف تماما عن المجتمع الشرقى المحافظ الذى نشأ فيه فى مصر، تقول الدكتورة لطيفة سالم أستاذة التاريخ الحديث بجامعة بنها عن هذه الفترة من حياة فاروق.

كان هناك الجانب السيىء لهذا المجتمع الغربى المفتوح، وهو مايتصل بالمغامرات النسائية، حيث أغراه زملاؤه الإنجليز، وجذبوه معهم بعد أن اصطنعوا القصص للتغيب عن دروسهم والافلات من الصول الإنجليزى المشرف عليهم، فماذا كان موقف أحمد حسنين وعزيز المصرى: أما أحمد حسنين فكان له من الدهاء والمناورة والمهارة ما يعطيه مؤهلات التفوق على الثانى الرجل العسكرى الصلب وصاحب الأخلاق القويمة، وانقاد فاروق لأحمد حسنين وأعرض عن المصرى.. وهذا أمر طبيعى لا يلام عليه الأمير الصغير بقدر ماتلقى التبعة على رجل البلاط الذى خطط بدقة ليستحوذ على قلب ولى العهد حتى يحقق أطماعه مستقبلا فكان يصحبه إلى الأماكن الخاصة ليلا، وقدم عبدالفتاح عمرو- وكان يعمل فى مكتب محام- خدماته فى هذا الشأن، ولم يتمكن عزيز المصرى من وقف هذا التيار حيث احتال غريمه وضم إليه ولى العهد نهائيا، ومضى يعمل من وراء ستار، وسلك كل الطرق وكان عزيز المصرى يواجه أحمد حسنين بهذه الأفعال ويرى أنها لا ترتكب فى حق الأمير فقط، ولكن فى مصر التى تنتظره على عرشها، لكنه لم يجد أذنا صاغية، وإنما تلقى دفاعا لا يقبله إنسان ملتزم. وعلى هذا فشلت خطة التعليم والتربية التى وضعها الرجل العسكرى مما اضطره إلى أن ينسحب من الميدان تاركا فاروق لمن تسبب فى إفساده.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org
E - mail : info @egyptianbook.org

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٠٠٩ / ٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 01 - 9854-4